تطور التأريخ الأدبى ★

د . أبو اليزيد الشرقاوى
كلية دار العلوم -جامعة القاهرة

أهو نوع من الأمل أم ضرب من الطموح أن ننظر لمواقع أقدامنا بعد مرور قرن من الزمان على استحداث هذا العنوان البراق « تاريخ الأدب العربى »؟

الواقع أن الأمر سيبدو أقل شأنا من هذا التهيب الذى نبدأ به هذه الدراسة ؛ فقد كشفت المتابعة عن نتائج تجعل هذا «الأمل » حتما لا مفر منه فقد مر قرابة القرن ، وهى فترة كافية جدا لتقديم دراسات تخطو بهذا الفرع من الدراسات الأدبية خطى واسعة نحو الكمال ، ولكن -ويالأسف - لم يتحقق شىء ذو بال، وما زلنا -بالرغم من تتابع الدراسات -بحاجة ماسة إلى كتابة تاريخ أدبنا العربى ،وفق رؤى جديدة ، بعيدة كل البعد عما ألفناه من المنهج أحادى الرؤية القائم على رصد «التطور» ، والذى ساد خلال هذا القرن .

ولان الدراسة تقوم - اساساً - على« تاريخ الأدب » ، فنحن بحاجة ضرورية إلى تحديد مفهوم «الأدب » أولا ، وتاريخه ثانيا .

مر لفظ الأدب بمراحل كثيرة حتى صار «مصطلحا »، فعنى جملة المعارف والآداب والسلوك التى تجعل الإنسان متحضرا ، وظل هذا المفهوم مسيطرا على الأذهان حتى جاء العصر الحديث ، فتخصص مصطلح الأدب ليشير إلى نوع من الكتابة الفنية ، تنحصر فى الشعر والرواية والقصة والمسرحية ، فقط.

فى الحالة الأولى ، كان الأدب «وسيلة » لإضفاء الطابع الحضرى على المثقف . وفى الحالة الثانية تحول الأدب إلى «غاية» لا تخدم إلا نفسها أو كما يقول دارسو الآداب تحول إلى «خطاب غير نفعى » (١) ، بمعنى أنه يحقق نشاطا جماليا صرفا غير مرتبط بغايات فكرية .

ومن هذا المنطلق ، فإن استحضار هذين الحدين للأدب يبدو أمراً مهما ، ونحن

(★) القسم الأول من البحث

نستعرض تطور التاريخ الأدبى ، إذ ستنصرف الدراسات بلا استثناء إلى تتبع تاريخ أحد هذين النوعين .

و «تاريخ الادب » أمر يصعب تعريفة ، والاتفاق على حدوده ، وقديما قال القدّيس أو جسطين عن تعريف الأسطورة « Myth » إننى أعرف جيدا ما هى ، بشرط ألا يسألنى أحد عنها . ولكن إذا سئلت ، وأردت الجواب فسوف يعترينى التلكؤ (٢) ، وهو نفس الأمر مع « تاريخ الأدب » ، فهو كتابة تاريخ الفن ، بأحد المعنيين السابقين ، ولكن كيف ، وما هى الزوايا التى سَيُنْظر إليه منها ؟ هنا سنجد الطرق تؤدى إلى الفُرْقة .

لعل الوحيد الذي تعرض لهذه القضية بتفصيل كان الدكتور «طه حسين » ، فى مقدمة كتابه الشهير «فى الأدب الجاهلى»، حيث خلص إلى أن الأدب هو «مأثور الكلام وما يتصل به لتفسيره (٣) » ، ثم يجادل كثيرا لينتهى إلى أن «الأدب كل شيء » ، وبناء عليه فإن تاريخ الأدب هو ، أيضا ، تاريخ كل شيء ، أو بتعبيره هو فإن «مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفى بمأثور الكلام ، ولا بهذه العلوم و الفنون التى تتصل بمأثور الكلام اتصالا شديدا لتمكننا من فهمه وتذوقه . وإنما هو مضطر إلى أن يتجاوز هذا الإنسان من حيث هو حيوان ناطق يجب أن يعرب عما فى نفسه بصورة كلامية فنية . فهو مضطرإلى أن يدرس تاريخ الشعور ، ولنعد إلى التبسيط فنقول إن مؤرخ الآداب مضطر إلى أن يلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة وتاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أيضا إلماما يختلف إيجازا وإطنابا ويتفاوت إجمالا وتفصيلا باختلاف ما لهذه الأشياء كلها من تأثير فى الشعر والنثر أو تأثر بهما (٤) ، وهو كلام جميل لولا أن الدكتور طه حسين يبالغ - فى بقية الصفحات الأخرى - فى وصف الثقافة الواجب توافرها لدى المؤرخ ، إذ لو سمعنا كلامه لأفنينا العمر دون أن ندرس الأدب .

وعنده الأدب أدبان : أحدهما إنشائى والآخر وصفى ، أما الأول فهو هذا الكلام نظما ونثرا ، هو هذه القصيدة التى ينشدها الشاعر والرسالة التى ينشئها الكاتب . وأما الأدب الوصفى فهو ما اتفق المحدثون على أن يسموه تاريخ الأدب . ولكون تاريخ الأدب أدباً ، فهو مزيج من العلم والفن ، أو قل من البحث والذوق .

ويخلط الدكتور طه حسين خلطا بَيّناً بين « النقد » و« تاريخ الأدب » ، لينتهى إلى هذا الادعاء العريض : « أى شىء تقرأ فى الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن سلام إلا هذا الأدب الوصفى » (٥) ؟ (= تاريخ الادب). ويظل المؤلف مستغرقا فى وصف طبيعة الحدود والعلاقة بين الأدب وتاريخه دون أن يضع تعريفا لتاريخ الأدب .

وثمة محاولة قدمها «رينيه ويلك» وضح من خلالها وظيفة المؤرخ ، حيث جعل التفسير والنقد والتقدير «إحدى مهمات مؤرخ الأدب (و) المهمة الأخرى هى تقصّى تطور الأعمال الفنية مرتبة فى مجموعات صغيرة أ وكبيرة بحسب تأليفها المشترك أو نوعها ، أو أنماطها الأسلوبية ، أو تراثها اللغوى ، وأخيرا ضمن مخطط الادب العالمى (٦) » . ثم يضيف بُعْداً آخر حين يقرر «أن تحديد المكانة المضبوطة لكل عمل فنى فى التراث لهو أول مهمات تاريخ الأدب (٧) .

وهذا يعنى أن « تاريخ الأدب » أساسا نوع من «النقد» يحاول أن ينظر فى تاريخية النصوص ، مستكشفا كيفية انتقال الأدب من جيل إلى جيل ، وما اعتراه خلال هذا الانتقال من «تغيير » أو «تطور» سواء أكان بالسلب أم بالإيجاب ، مع محاولة تفسير هذا التغير الحادث فى بنية الأدب نتيجة لعوامل داخلية ترجع إلى الإنهاك والرغبة فى التغيير - كما يقول رينيه ويلك - أو نتيجة لعوامل أخرى خارجية ترجع إلى التغيرات الاجتماعية والثقافية ، وبقية التغيرات الفكرية الأخرى . أو نتيجة للعاملين معا .

لذلك تبدو المناهج السائدة فى دراسة تاريخ الأدب (ويسميها الدكتور طه حسين مقاييس التاريخ الأدبى)، وهى المنهج السياسى ، وهو الأكثر شيوعا ، أو المنهج العلمى كما قدمه الثالوث المشهور :سانت بيف الذى يرى الأدب انعكاسا للذات الفردية ، وهيبوليت تين صاحب فكرة العلاقة الحتمية بين الجنس والبيئة والزمن وبرونتيير مستعير نظرية النشوء والارتقاء ومطبقها على الأدب ، أو المنهج «الأدبى »الذى اقترحه طه حسين . أقول : تبدو هذه المناهج جديرة بالأحترام ، غير أن اختيار أحدها يتوقف على طبيعة الموضوع المدروس .

ولقد بدأت دراسة تاريخ الأدب العربى على أ يدى المستشرقين ، فكان «أول من قام بمحاولة لتقديم تاريخ الأدب العربى فى عرض كامل -كما يذكر برو كلمان - هو المستشرق النمسوى :يوسف هامر بور جستال ، الذى صَنَّفَ كتابا فى هذا الفن يشتمل على سبعة أجزاء ، ونشره فى فيينا سنة ١٨٥٠م . على أن هذا المستشرق لم يكن على علم كاف بالعربية ، كما أن أهم مصادر الأدب العربى لم تكن قد عُرِفَتْ بعد فى زمانه . ثم صنف أربتنوت الإنجليزى سنة ١٨٩٠م كتاباً فى التاريخ والأدب العربيين ، يتسم بالإيجاز المخل ، ولا يتميز كثيرا عن كتاب بور جستال . ولكن فى المدة بين الكتابين صنف المستشرق النمسوى أيضا :الفريد فون كريمر ، تخطيطا مختصرا ولكنه ممتاز لتاريخ عمران المشرق فى عصر الخلفاء ، نشره سنة ١٨٧٧م فى فيينا ، وكان له أثر قوى فى توجيه برو كلمان ، وتنوير جوانب الموضوع الذى تعرض له . ثم نشر برو كلمان نفسه الطبعة الأولى من كتابه فى مدينة فايمر بألمانيا سنة ١٨٩٨م . على أنه ينبغى ملاحظة أنه كان قد ظهر فى مصر قبل برو كلمان أيضا كتاب فى تاريخ العرب وآدابهم من تأليف : إدوارد فانديك و فيليبدس قسطنطين طبع فى بولاق سنة١٨٩٢م.ولكنه كتاب تعليمى لا يقدم إلا نظرة عابرة فى أدب العرب وثقافتهم ، وإن تأثر - فيما يبدو - بالكتب الألمانية والإنجليزية السابقة عليه والمذكورة من قبل »(٨) .

وعربياً ، يجمع المؤرخون على أن الأستاذ حسن توفيق العدل هو أول من وضع العنوان في كتابه المؤلف عام (١٩٠٢) والمطبوع عام (١٩٠٦) بعد وفاته ، لكن هذا الإجماع خاطىء ، فأول عنوان عربى هو الكتاب السابق الإشارة إليه «تاريخ العرب وآدابهم » تأليف إدواردفانديك وفيليبدس قسطنطين (١٨٩٢) والمطبوع فى مصر ، وهو العنوان الذى ألهم جورجى زيدان الصورة النهائية «تاريخ آداب اللغة العربية » فى مجموعة مقالات نشرت فى مجلة «الهلال »عامى (١٨٩٤ . ١٨٩٥)،وهو متأثر فيه بالكتب السابقة الذكر كلها ، ولذلك فهو أول محاولة عربية لكتابة تاريخ الأدب ، وهو أول من صَكَّ المصطلح بصورته النهائية .

ولعل من نافلة القول التنبيه على أن لفظ «الأدب» - أو «الآداب» - الوارد فى هذه العناوين السابقة لا يحيل على «الأدب» بمعناه الاصطلاحى ، بقدر ما يحيل على

الثقافة والحضارة والتاريخ وكل ما له علاقة بالعرب والمسلمين ، مما يجعل «تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء »، لألفريد فون كريمر داخلاً ضمن «تاريخ الأدب» ، ولا يستثنى من ذلك أشهر المؤلفات تحت هذا العنوان حتى وقتنا هذا ، وهو كتاب كارل برو كلمان «تاريخ الأدب العربى» .

وأول من نقابلهم هو الشيخ حسين المرصفى فى كتابه «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية » ، المطبوع عام (١٨٧٥) ألف وثمانمئة وخمسة وسبعين ، وهذا الكتاب لا يدخل ضمن تاريخ الأدب إطلاقاً ، ولكنَّ ظلاله انعكست على المؤرخين فيما بعد ، لذلك سنفرد له جزءاً ، فكما يزعم محقق الكتاب ، فالمرصفى «أول من أرسى قواعد المنهج التاريخى فى الدرس الأدبى » (٩) .

وأول ما نقابله عند المرصفى ، هو مفهوم الأدب ، وهو لا يخرج عن مفهوم الكياسة والذكاء الاجتماعى الذي فرضه النقاد قديما على الشعراء إذا وقفوا بين يدى الملوك ، يقول «الأدب معرفة الأحوال التى يكون الإنسان المتخلق بها محبوبا عند أولى الألباب ، الذين هم أمناء اللّه على أهل أرضه ، من القول فى موضعه المناسب له ، فإن لكل قول موضعا يخصه ، بحيث يكون وضع غيره فيه خروجا عن الأدب (ص٣٧) . وغنى عن البيان أن الأدب هنا لا يزيد عن مفهوم « البلاغة » الذى كان يُشَرِّع للشاعر قديما «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » : فمقتضى الحال فى البلاغة ، هو وضع القول فى موضعه عند المرصفى ويمضى المرصفى خطوة أخرى ، ليجعل الأدب سلوكاً اجتماعياً ، فعنده «الناس فى الأدب متفاوتون تفاوتاً عظيما . فمن قرأ العلوم وطاف فى البلاد وعاشر طوائف الناس بعقلٍ حاضر وتنبُّهٍ قائم ، وضبط جيد ، حتى عرف العوائد المختلفة ، والأهواء المتشبعة ، وميز الحسن منها وتخلق به ، يكون بالضرورة أكثر أدباً ممن قرأ وخالط ولم يَطُفْ ، وممن قرأ وطاف ولم يعاشر » (ص ٣٨) .

وبناء عليه فإن المرصفى يجعل العلوم العربية عَلَماً على : النحو والصرف والإملاء وحروف المعانى والعروض والقوافى والإنشاء وعلوم البلاغة وأدبيات اللغة والمنطق .

فإذا ما تعرض المرصفى للشعر ،فذلك يكون بدافع دينى «لكونه معرفا لمقاصد القرآن ، وأقوال النبى(ص) فهو من الدين » (ص ٤٦) .

لذلك فالوسيلة الأدبية كتاب فى كل شىء ، ومفهوم الأدب فيه مفهوم أخلاقى ، يحتفظ ببقايا دور الشاعر قديماً حين كان ظل الملك وناشر صفاته .

وأولى المحاولات التى وقفت عليها مصروفة إلى تاريخ الأدب ، محاولة الأستاذ محمد بك دياب فى كتابه ذى الجزئين : « تاريخ آداب اللغة العربية »، والذى قدمه مؤلفه إلى نظارة المعارف وراجعه الأستاذ حمزة فتح اللـه سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م ، وطبع سنة (١٩٠٠) ، فبين تاريخه وإخراجه ثلاثة اعوام .

ويتبع هذا الكتاب المفهوم التراثي للآداب ، حين كان يعني كل شىء أو كما عبر ابن خلدون «الأخذ من كل علم بطرف » ، لذلك يأتى موزعاً على أبواب : - الأول : «في تاريخ اللغة » والثانى « في تاريخ الكتابة أو الخط » والثالث « في تاريخ الشعر » . أما البابان الأول والثانى فليس بينهما والأدب علاقة ، إلا إذا أخذنا فى الحسبان لفظ « الآداب » الوارد في عنوان الكتاب جمعاً ، فيصبح مجموع هذه الفصول : أدب اللغة وأدب الكتابة وأدب الشعر ، وسيكون إطلاق لفظ «أدب » على اللغة والخط من قبيل التجوز ، وسيبقي الباب الثالث - فقط - داخلا فى صلب تاريخ الأدب ، ولكن المشكلة أن الموضوعات التي يعرضها المؤلف (وهى : تأليف الشعر ، أولية الشعر ، فيما يتبع الشعر كالموشح والزجل والكان كان والدوبيت الخ ... ، وفى تاريخ العروض والقافية) جعلت هذا الجزء مجرد شواهد مختارة مربوط بينها بمقدمات نثرية موجزة ، تكشف عن إلمام متواضع بقواعد النقد ، لذلك فلم يقدم المؤلف تاريخا للشعر ، بل وضع مختارات شعرية مرتبة زمنيا ، لذلك يظل قول المؤلف عن منهجه « شرحت فيه نشأة العلوم الأدبية وسيرها فى مختلف العصور والكتب التي أُلِّفَتْ فيها وأزمانها وحياة مؤلفيها وذكرت فصولاً من كل فن اقتضاها سير التأليف » (ص .ب . من المقدمة) ، وأقول - يظل مثل هذا الكلام حلما لم يتحقق فى الكتاب .

لعل النقطة الجديرة بالانتباه في هذا الكتاب ، هى اعتراضه على بدء المدائح بالغزل ، بعد ان رسخ هذه الصورة ابن قتيبة ، تراثياً ، فكان اعتراض المؤلف عليها بذرة ما قاله العقاد لشوقى بعد عقدين من الزمان ، فالأفكار متشابهة بشكل واضح .

وفى عام (١٩٠٤) أخرج الأستاذ روحى الخالدى كتابه القيم «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو» وقد شرح المؤلف عنوان كتابه - علي الغلاف - كما يلى «وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية فى علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من إبَّان تمدنهم إلى عصورهم الوسطي، وما اقتبسه الإفرنج عنهم فى الأدب والشعر فى نهضتهم الأخيرة وخصوصاً علي يد فيكتور هوكو ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته». أ . هـ

فالكتاب، اساساً، فى الأدب المقارن، ولكن بشكل بدائى، لذلك فهو يحتقب كثيراً من المعلومات والقضايا ومن بينها تاريخ الأدب، الذى يشغل حيزاً ضئيلاً فى الكتاب لا يتعدى ستاً وثلاثين صفحة (٣٦) بالرغم من أنه ركيزة أساسية فى العنوان. لذلك فقد جاء استعراضه لتاريخ الأدب موجزا، وقد تعرض لمجموعة قضايا نقدية، سوف تشغل الساحة فيما بعد، مثل دعوته إلى اطراح قيود الوزن والقافية، فعنده «قلما يفلح الشاعر المجيد إلا فى بعض الأبيات سيما فى الشعر العربى حيث ضُيِّقَ فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التى تخطاها شعراء الأفرنج على أن أكثر فحول الأدب فى البلاد المتمدنة صارفون عنايتهم فى يومنا إلي النثر المرسل دون النظم كما فعل فكتور هوكو فى آخر عمره وكما يفعل إميل زولا وغيره من أدباء الروس مثل تولستوى» (ص ٤٢).

وهو يبدى ميلا بارزاً إلي الربط بين السياسة والأدب، وكذلك تَحَضُّرُ المجتمع - عنده - ينتج شكلاً شعرياً متحضراً، وهى صدى الفكرة الماركسية عن البنية التحتية والبنية الفوقية، وكيف أنَّ كل تحول فى البنية التحتية يؤدي إلى تحول فى البنية الفوقية، لذلك يضطر المؤلف إلى أن يخالف الشائع والمألوف، ليقرر أن الشعر صار أكثر رقيا وتقدما فى صدر الإسلام وبنى أمية، «والسبب فى ذلك حصول الانقلاب فى الأمة وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الأقوام بعضها ببعض فاتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع أهل الطبقة الإسلامية وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبني وأعدل تثقيفاً بما استفاده من انفتاق الذهن وتوسع

دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالى الطبقة فى القرآن والحديث »(ص ٤٨). وهذا الرأى يُلقَى دون دليل ، وكأنه حقيقة قد اتفق عليها المؤرخون ، مع أن الأصل كما ذهب **أبو عمرو بن العلاء** إلى أن الشعر قد ضعف فى صدر الإسلام للوازع الدينى الذى يقتل عنصر الشر ، وهو أكبر دافع إلى الإبداع .

ولاينساق المؤلف وراء تلك الدعوى العريضة عن **أثر الفرس فى الشعر العربى** ، ويجعل تأثير الفرس واليونان وقفاً على العلم والحكمة (= الفلسفة) فقط ، فالعرب «لم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئا من ذلك . مع أنهم رأوا فى كتاب المنطق لأرسطو ثناء طيبا على أوميروس الشاعر اليونانى ولكنهم لم يقلدوه ولا نهجوا منهجه فى شىء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبى والمعرى وابن هانى إلا من جهة إفادتهم الآراء الفلسفية ، لا من جهة إفادتهم أساليب النظم وطرق الكلام » (ص ٦٨)

وبعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الشق الثاني ، فبعد أن بين محدودية تأثير الثقافة الأجنبية فى الشعر القديم ، يصوغ هذا السؤال : « فإن لم يكن لفنون الأدب الأعجمية كبير تأثير على شعر العرب ونثرهم ، فهل لفنون الأدب العربى تأثير على شعر الإفرنج ؟ » (ص٦٩) ، وإجابة هذا السؤال تستغرق بقية الكتاب .

والدراسات السابقة لا تدخل تحت تاريخ الأدب إلا بشىء من التجوز ، إذ هى نظرات فى النقد والثقافة عموما .

وأول دراسة تقترب من تاريخ الأدب هى دراسة الأستاذ حسن توفيق ، المطبوعة عام (١٩٠٦) بعد وفاة مؤلفها ، وهى جزء واحد ، ينتهى عند نهاية العصر الأموى ، وقد وعد المؤلف «بالجزء الثانى ، وأوله اللغة العربية فى عصر الدولة العباسية » (ص ١٦٩) ، ولكن لسوء الحظ لم يظهر للوجود ، وهذا الكتاب يشبه في منهجه كتاب الجاحظ «البيان والتبيين » ولكن مع الإضافات العصرية التى أوجبتها المعارف الحديثة . إذْ ما يزال به الخلط والجمع وترديد نفس الكلام الشائع فى كتب المتقدمين .

يبدأ الكتاب بتحديد المدلول والمنهج ، فيرى أن « تاريخ أدب اللغة يبحث عن حالة الحياة العقلية والبيانية للأمة فى عصورها المختلفة وعن نشأة لغتها وتدرجها ومدوناتها » (ص ٦) . وهذا المدلول الفضفاض ينبع من كون الدال «آداباً » بصيغة

الجمع فيستتبع ذلك عد كل ما هو بلغة عربية أدبا ، وهو «مدوناتها » ، بما فى ذلك «الأدب » من منظوم الكلام ومنثوره . ولأول مرة - عربيا - يتم تدشين التقسيم العصورى المألوف ، وتوزيع الأدب عليها ؛ يواصل المؤلف : «تاريخ أدب اللغة تابع فى تقسيمه للتاريخ السياسى أو الدينى فى كل أمة ، لأن الأحوال السياسية أو الدينية تكون في العادة عامة فإما أن تبعث الافكار وتحرك الأميال (= الميول) لمزاولة المعارف أو تكون سببا فى وقوف الحركة الفكرية فى الأمة بما يلحق السياسة أو الدين من الضعف ... وعلى هذا رأينا أن نقسم الكلام على تاريخ أدب اللغة العربية إلى خمسة عصور ، العصر الأول عصر الجاهلية ، والعصر الثاني عصر ابتداء الإسلام والعصر الثالث عصر الدولة الأموية ، والعصر الرابع عصر الدولة العباسية والدولة الأندلسية ، والعصر الخامس عصر الدولة المتتابعة إلى هذا العهد .

وهذه العصور التى رسمها المؤلف هي محور الدراسات التالية ، مع بعض التعديلات ، كأن يُجْعل عصر « صدر الإسلام وبني امية » عصرا واحدا ، أو يقسم العصر العباسى إلى عصور ، فإذا اضفنا إلى ذلك العصر الحديث - والذى لم يتعرض له المؤلف - كنا أمام التقسيم الرسمى السائد لدي مؤرخى الأدب .

ويتعرض الكتاب للعصور الثلاثة الأولي . ففى العصر الأول - الجاهلي يتعرض للموروث الثقافى عن هذا العصر ، فلا يخرج عن دائرته ، كحياة العرب الجاهلين ومصادر شعرهم من مختارات ودواوين وكلامهم المنظوم والمنثور وشعراء المعلقات ، وترجمة لتسعة عشر شاعرا ويضيف إليهم ليلي العفيفة ، ويتبعهم بمختارات من أشعارهم .

ولعل ابرز ما فى هذا الكتاب هو تعرضه للهجات العرب وانتفاء الخلاف اللهجى من الشعر ، وهو يبرر ذلك تبريرا فنيا ، وهذه القضية هي ما سيجعل منها طه حسين - وقبله عدد من المستشرقين - صرحا هائلاً ليشكك فى صحة عزو الشعر الجاهلى .

وفى العصر الثاني - عصر ابتداء الإسلام - يستنفد الحديث عن القرآن وتاريخة والأحاديث النبوية القدر الأكبر من حديث المؤلف ، فإذا تعرض للشعر ، ترجم لأحد عشر شاعرا من بينهم الخنساء ، وأورد بعض أشعارهم ، فقط .

وفى العصر الثالث - العصر الأموى - تصل الأمور إلى غايتها ، فيتسع حديث المؤلف ليشمل : وضع النحو ، والنقط والإعجام ، والتدوين والحديث والتاريخ والطب والكيمياء والأغانى والحياة العقلية والعقائد الدينية والنثر والخطابة والرسائل والشعر ، ثم يترجم لعشرة شعراء وينتهى الكتاب .

وواضح أن « الآداب» التى يؤرخ لها المؤلف هى فروع الثقافة العربية ، لذلك فمفهوم «الأدب » هنا يتمشى مع الفهم التراثي له ، وصنيع المؤلف هنا يبدو تهذيباً وتنقيحاً عصرياً جداً لكتاب المرصفى « الوسيلة الأدبية » ، وهذه الصورة المهذبة عند الأستاذ حسن توفيق هى ما ستترك ظلالها طويلا على حقل التاريخ الأدبي فيما بعد .

وفى العام التالى (١٩٠٧) أصدر رينولد .أ . نيكلسن كتابه « تاريخ الأدب العباسى» ، وهو بمثابة الجزء الثانى لكتاب حسن توفيق السابق ، نفس مفهوم الأدب الفضفاض ، ويبدأ الكتاب بمقدمة تَعدُ بأن تقدم الفكر والحضارة والثقافة الإسلامية ، يؤكد هذا الزعم ويقويه تقديم المترجم - د/ صفاء خلوصى - الذى يجعل الأدب العباسى أدباً رومانتيكياً ثائراً على كلاسيكيات العرب (الجاهلية والأموية) ، ولكن قراءة الكتاب بعد هذا الابتهال العارم من المترجم والمقدمة الواعدة للمؤلف ، تخيب كل ظن ، إذ لم يوفق الكاتب إلى هذا الطموح الكبير . لذلك فالكتاب يتعرض للأدب العباسي والأندلسى وفيما بعد الدولة العباسية حتى وقت تأليفة (١٩٠٧) ، ولكل أنواع المعارف الإسلامية ، من فلسفة وتصوف وتاريخ وأدب ولغة وجغرافيا الخ ... ، دون أن يزيد عن آراء السابقين ، وإعادة شرحها وبسطها فقط .

وفى عام (١٩٠٨) كتب الأستاذ محمد حسن نايل المرصفى كتابه « أدب اللغة العربية » ، وهو يشرحة على صفحة الغلاف كالتالى : « يشتمل على احوال اللغة العربية فى أعصرها الخمسة ، عصر الجاهلية ، فصدر الإسلام فالدولة الأموية فالعباسية فالدول المتتابعة ، وخاتمة فى العصرين مع ذكر أشهر الشعراء والشاعرات والخطباء والخطيبات والكتاب والكاتبات وشيء من تاريخ حياتهم وجيد كلامهم نثراً ونظما » .

لذلك فالكتاب مجموعة تراجم ، لأعلام الحضارة الإسلامية ، كل مجموعة ينضمون معاً وفق انتمائهم الأدبي ، تسبقهم مقدمة توضح شيئاً عن الجنس الأدبى الذى يمثلونه ، ويحتوى الكتاب على تراجم لمائتين وواحد وعشرين علما ، مما يلحقه بكتب الطبقات ، ومعاجم الأدباء ، كالفهرست لابن النديم ، والوفيات لابن خلكان .

ويطرح المؤلف تصوراً أكثر تقدماً - بالقياس إلى ما سبقه - لمفهوم تاريخ الأدب ، « فهو فن يبحث فيه عن أحوال اللغة وأطوارها وما دخلها من وجوه التهذيب والتحسين أو التأخير (= التخلف). وموضوعه : الكلام من حيث الحسن والإجادة والطبقة والشعراء والخطباء وما نقوه من بنات الأفكار ومبتكرات الخيال وفائدته : الوقوف على تواريخ الألفاظ وما اعتورها من تغيير المعنى بالاصطلاح والمجاز والكناية واكتساب النقد بالوقوف على ثمرات الأفكار من نوابغ الرجال ومعرفة المآخذ الصحيحة وما يوثق بعربيتهم وإرجاع الأساليب إلى العصور حتى تحيا اللغة بالتحدى والمماثلة » (ص ٦) .

ويظل هذا التحديد للمفهوم والموضوع والفائدة خالطا بين الأدب واللغة ، فتواريخ الألفاظ تعنى المعجم التاريخى للغة ، وليس بينه وبين الأدب ثمة علاقة ، ولكن هذا الخلط سمة الفترة الزمنية كلها .

وفيما يتعلق بالمنهج ، فإن المؤلف يلتزم التقسيم السياسى ، مع إضافة جديدة ، وهى تقسيم العصر العباسى إلى عصرين : (أ) الأول من المنصور (١٣٧ هـ) إلى الخليفة الراضي (٣٢٨هـ) . (ب) والثانى ما تبقى بعد بعد ذلك من تاريخ الدولة العباسية ، وهى نفس الفكرة التى سيتبناها - فيما بعد - الدكتور شوقى ضيف فى مشروعه الضخم « تاريخ الأدب العربى » ولفظ « العصرين » الذى ورد فى عنوان الكتاب يمثل العصر الخامس ، وهو من سقوط بغداد إلى استيلاء محمد على (١٢٢٠ هـ) .

وعلى الجملة ، فالكتاب بعيد كل البعد عن تاريخ الأدب ، بقدر اقترابه من كتب التراجم ، فهو يعيد إلى الأذهان كتب الطبقات .

وفى نفس العام (١٩٠٨) أصدر الأب لويس شيخو اليسوعي الجزء الأول من كتابه « الآداب العربية فى القرن فى القرن التاسع عشر » ، ثم تلاه الجزء الثانى سنة

(١٩١٠) . وهذا الكتاب محاولة جديدة لدرس الأدب على أساس ديني ، فثمة أدباء النصارى ، يقابلهم أدباد المسلمين ، ويقابل هذين الصنفين : المستشرقون ، ومن خلال تتبع دور هذا الثالوث ، يحاول المؤلف أن يؤرخ للأدب خلال القرن الماضى . والمؤلف مهتم بإبراز الدور المسيحي فى الثقافة العربية ، مهما كلفه ذلك من خروج على المألوف ، ففى كتابه « شعراء النصرانية » وهو يتعرض للجاهلين جعلهم جميعا - إلا قلة - من النصارى ، حتى من اشتهر بوثنيته كامرىء القيس ، فلعل هذا الصنيع رد فعل مثقف مسيحى أمام تجاهل مؤرخى الأدب المسلمسين ، أو رغبة منه فى تبيين دور النصارى .

والكتاب مجموعة وثائق تاريخية وتعريفات بفترة لا يتوقف الدارسون أمامهاكثيراً ، ولا يعرف الدارسون أكثر الأسماء المذكورة من النصارى والمسلمين وعلماء الإستشراق . ويبقى البون بعيداً بينه وبين تاريخ الأدب . يقول المؤلف فى مقدمتة « ومن عجيب أمور اللغة العربية أنك لا تجد حتى اليوم تاريخاً لآدابها مع وفرة كتبتها وتعدد مصنفاتها فى كل أبواب العلوم ، وأتساع دائرة نفوذها ،.. ، وقد أحس بهذا النقص فئة من المستشرقين المحدثين فى فرنسا وألمانيا وانكلترا وروسيا وإيطاليا فأرادوا نوعا سد الخلل ببعض التآليف التى أودعوها أوصاف العلوم العربية وتراجم أصحابها وقائمة كتبهم التى صنفوها على أن تلك التآليف مع فوائدها ليست سوى بواكير أعمال أوسع وأكمل ولا تزال فى حاجة ماسة ، فنتمنى أن تتألف فرقة من الأدباء تقوم بهذا المشروع الجليل فتتبع آثاراللغة العربية فى كل اطوارها مباشرة بعهد الجاهلية وبين القبائل المتفرقة فى أنحاء الجزيرة ثم تدون نشأة تلك اللغة وما طرأ عليها من الطوارىء فى أوائل الإسلام وفى زمن الخلافة الأموية والعباسية مع وصف الأسباب التي زادتها انتشاراً كفتح المدارس وإنشاء المكاتب ونادى العلوم وتنشيط الملوك ، ثم تعرف أئمة الكتبة والذين اشتهروا فى كل زمن وبلد واختصوا بكل صنف من العلوم . وتذكر خمود تلك الآداب فى القرون الأخيرة مبيّنة لعللها ومعلولاتها ثم نختم ذلك بفصل مطول عن النهضة الأدبية التى حدثت فى القرن الأخير » .

وسنلاحظ على هذه الفقرة مجموعة ملاحظات : أولها أن « الآداب » تأتى بصيغة الجمع ، مما يحيل إلى فروع الثقافة العربية ، وليس « الأدب » فقط . ثانيا :

أن المؤلف يشير إلى كتاب « برو كلمان » - فهذه الصفات الواردة فى النقل السابق صفاته - ويوافق على أنه تاريخ أدب ، ويأمل أن يتطور هذا التاريخ ، فى حين أن كتاب برو كلمان فى تاريخ الثقافة والحضارة والفنون والمعارف الإسلامية . وثالثاً : أن الخلط بين اللغة والأدب هو سمة هذا النقل .

وفى السنة التى تفصل بين جزأى كتاب الأب لويس شيخو (١٩٠٩) ، كان الأستاذ حفنى ناصف يدّرس لأول مرة فى تاريخ الجامعة المصرية مادة « تاريخ الأدب » ، فكتب كتابه « تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ».

وربما كان الأستاذ حفنى أكثر إدراكا للمحتوى حين عطف فى العنوان بهذا البدل : حياة اللغة ، ومن هنا يكون طبيعياً جداً حديث المؤلف عن تاريخيتها ، فيبدأ بحديث عن العرب أصحاب اللغة ، ومعلومات تاريخية عن الجاهليين ، ثم ينتقل إلى « الكتاب الأول فى حروف اللغة العربية » وهو يستغرق كل الكتاب ، فلعل له بقية لم أقف عليها ، أو لعله مشروع كتاب لم ينجز بعد .

وحين حاول المؤلف أن يُعَيِّنَ المدلول والوظيفة ، فإنه يعيد إلى الذهن تصورات السابقين ، خصوصا محمد حسن نائل المرصفى ، والأب لويس شيخو ، فعنده أن « تاريخ الأدب أو حياة اللغة نوع من التأليف الخاص يبين أحوال اللغة العربية واستعمالاتها وأطوارها المختلفة من بدء نشأتها إلى الآن. ويدخل فى ذلك وصف الكلام من شعر ونثر فى كل عصر من عصور التاريخ وذكر نوابغ الشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين وبيان تأثير كلامهم فى من بعدهم وتأثرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنة بينهم والإلمام بمؤلفاتهم . وفائدة هذا الضرب من التاريخ الوقوف على كيفية نمو اللغة العربية وسيرها التدريجى وبيان أسباب ارتفاعها وانحطاطها ومعرفة أحوالها فى كل عصر على حدة ، وتمييز ضروب المنظوم والمنثور ونسبة كل قول مأثور إلى عصر من العصور واحتذاء الطالب لما يروق منها وتنكبه عما يستنكره من أساليبها » (ص٣، ٤) .

وبذلك يكون تاريخ الأدب جزءا من تاريخ اللغة ، فإذا شاع قول ابن خلدون بأن الأدب وأركانه اربعة دواوين (أدب الكاتب - الكامل - البيان والتبين - الأمالى) قال « أقول : ينبغى أن يزاد كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه » (ص ٥) .

والأمر الأخير الجدير بالنظر فى هذا الكتاب ، أن فكرة المؤلف عن علم اللغة ، وأن « الكلام فى هذا العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم يتعلق بالحروف ، وقسم يتعلق بالكلمات المفردة ، وقسم يتعلق بالجمل » (ص ٥) ، هذه الفكرة - التى لم تنجز - هى ملهمة الرافعى دراسته القيمة ، وخصوصاً فى الجزء الأول من كتابه الذى سيلى .

وفى نفس العام (١٩٠٩) صدر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لمجموعة مؤلفين ، وهو كتاب يعيد إلى الأذهان كتب التراث ، وخصوصا « البيان والتبيين » ، وقد جعل المؤلفون منهجهم التقسيم العصورى المشهور عصر جاهلى ، وأموى وعباسى أول وعباسى ثانٍ ، وفترة رابعة وفترة خامسة ، تتعرض الأخيرة للأدب الحديث ، وهذه الفترات الخمسة تأتى مسبوقة بمقدمات سطحية وبسيطة ، هى كل جهد المؤلفين ، بيد أن هذا الكتاب يحاول أن يستبعد كثيرا مما ليس بالأدبى ، وإن ظلت به بقايا الفهم القديم للأدب ، فنجد حديثاً عن الأعلام التالية بهذا الترتيب : عبد الحميد الكاتب ، الإمام أبو حنيفة ، بشار بن برد ، الإمام مالك ، سيبريه ، الكسائى - أبو نواس - الإمام الشافعى - الفرّاء - أبو العتاهية - الأصمعى - أبو تمام - الإمام ابن حنبل - الإمام البخارى -الإمام مسلم - ابن الرومى ودريد (٦٣ -٧٣) .

وفى العام التالى (١٩١٠) كان الأستاذ كارلو نالينو يدرس تاريخ الأدب فى الجامعة المصرية ، للمرة الثانية - بعد حفنى ناصف - فاخرج كتابه العظيم « تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية » ، وهو كتاب بديع فى حينه وخطته ومنهجه وقضاياه ورؤيته الواعية جدا للشعر والأدب العربى وعلى الرغم من أن العنوان ما زال بصيغة الجمع « الآداب » إلا أن الكتاب أول محاولة لكتابة « تاريخ الأدب » بالمفهوم الحديث . ويقول الدكتور طه حسين فى تقديمه للكتاب : « ولأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظما . ولأول مرة ألقى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدي والشعر الذى استحدثته السياسة الإسلامية .. ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبري ... ، ولأول مرة تعلمنا أن الآداب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها وإما أن يكون دافعا من دوافعها (١٢ ، ١٣) ، ثم يواصل «إن دروس الأستاذ نالينو فى الجامعة المصرية القديمة كانت هى المرجع الأول لنهضتنا

العلمية فى دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة ، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه . ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الشباب حين أصبحوا أساتذة وقرؤا لهم حين أصبحوا مؤلفين (ص ١٤) .

وكلام الدكتور طه حسين ليس من قبيل المجاملات أو المبالغات ، فالكتاب يستحق كل هذا الثناء . وقد شعر المؤلف بأنه يبدأ من الصفر ، لذلك يصف جهد علماء العرب فى هذا الميدان بأنه « نبذ وجيزة وأشياء قليلة جداً » (ص ٤٢) ، وأنهم « أكثروا – مثلا – فى رواية أخبار أفراد وأقصروا عن بيان تقلب أساليب الشعروأغراضه بتقلب الهيئة الإجتماعية وتمادى العصور » (٤٣) ،لذلك يعلن المؤلف صراحةً جدة منهجه « إن المطلوب منى ليس إلا أن اطبق على الآداب العربية أساليب البحث التاريخى التى عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجية بطائل عظيم » (٤٣. ٤٤) .

ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب ، يعالج الأول المداخل إلى الدراسة ، فيعين مدلول لفظ أدب ، وتاريخ المصطلح ، وهو يرد اشتقاقه إلى الدأب المجموع على أدآب ثم آداب مثل رئم وبئر المجموعتان على آرام وآبار . وهو مجرد تخريج طريف ، لن يغير فى الأمر شيئاً – ثم يعرف تاريخ الأدب ، فيقسم التاريخ قسمين – متابعاً فى ذلك حفنى ناصف – : عام ، يتم استبعاده ، وخاص وهو ما ستقوم عليه الدراسة . ثم يتعرض لتقسيم التاريخ الأدبى إلى مراحل ، فإذا هى العصور الستة المألوفة ، ويبدي اعتراضه عليها ، ولكنه يضطر إلى قبولها « لتسهيل بيان سير الآداب فى مدارج الترقى أو رجوعها القهقرى » (٤٩). ، وربما « ينبغى قسمة تلك العصور الأساسية أقساما أخرى صغيرة ، وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمية بعض الوقائع السياسية » (٥٠) .

والباب الثانى يتناول العصر الجاهلى : شعراً ونثراً . يقسم المؤلف الشعراءَ فيه إلى أربعة طوائف بناء على التوزيع الجغرافى للشعراء على الخريطة العربية ، مع استكشاف ما يربطهم من علامات تشابه ، وما يميز كل محور منها بخصوصيات تميزه . لذلك فلم يعول على دراسة الشعر باعتبار موضوعاته (كالغزل والفخر الخ ..) . إذإن ذلك التقسيم الجغرافى يجعله يتناول الأفكار الشعرية المشتركة بين شعراء البيئة الواحدة دون توزيع شعرهم على محاور تبعا للأغراض مع ما فى ذلك من

تجزىء لاشعارهم ، وهو إذْ يفعل ذلك فإنما يرتبهم زمنيّا ليتتبع تاريخ الأفكار وكيفية انتقالها ، وتأثير هذه البيئات الجغرافية على الإنتاج الشعرى والأفكار والموضوعات والمعانى الشعرية ، وايضا : علاقة هذه البيئات ببعضها البعض ، وفى النهاية يخلص إلى تصور نهائى للشعر يقدم صورة كلية .

وهذه المحاور الأربع هى : (١) شعر أهل البادية (٢) شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان (٣) شعر النصارى بالحيرة وفى مملكة بنى غسان (٤)شعر أهل الحضر فى مدن الحجاز .ومن خلا ل ملاحظة البيئة يجد المؤلف - على سبيل المثال -أن شعراء المحور الثانى « ربما اخذوا عن نصاري الحيرة وغسان عبارات ومعانى دينية لم يسبق إليها أحد من شعراء الصنف الأول » (٦٦) .

وفى الباب الثالث يستعرض « الآداب فى صدر الإسلام وفى أيام الخلفاء الراشدين وفيه يتم تقسيم الشعراء على حسب موقفهم من الدين . ويبدأ المولف ليغير الفكرة الشائعة عن كساد الشعر فى أيام النبى » (ص) ، ليصل إلى نتيجة عكسية ، وذلك من خلال استعراض ثقافى لتاريخ الفترة وشعرائها ومرويّاتها ، ثم يتتبع المعانى الشعرية وتأثرها بالقرآن والإسلام ، وأبرز شعرائها ، وذلك من خلال قراءة نقدية واعية واستقصاء شبه تام لأبرز شعراء كل قضية ، ومن خلال إحالات هائلة إلى مراجع متعددة يحاول أن يبرز العلاقة الحميمة بين الشعر والدين والبيئة فى تلك المرحلة .

والباب الرابع « اصناف الشعر فى دولة بني أمية » ، يقوم على تقسيم الشعر إلى تسعة أصناف ، بعضها يقوم على اساس جغرافى والآخر فنى والثالث سياسى ، وهو ينطلق من بحث الجدل الحادث بين البيئة بكل ظروفها السياسية والاجتماعية والعمرانية من ناحية والشعر من ناحية ثانية . فيتتبع أغلب أعلام « الصنف » الشعري ، محاولا تحديد سنة مولدهم ومماتهم ، مبرزا دورهم فى ، إنماء الفن الشعرى الذى ورثوه ، وكيف تفاعلوا مع بيئتهم ، مشيرا إلى خصوصياتهم الفنية فإذا ما وجد شيئا جديدا قياسا إلى العصر الجاهلى فإنه يصفه ويعلل له ، كما فعل إذ لاحظ وجود قريض الشعر بدمشق جاريا مجرى فنون الشعر الجاهلى (ص١٢٣) ، فيعللها (ص ١٢٤ ، ١٣١) .

وخلاصة القول إن المؤلف تَوَفّرعلى دراسة الشعر فى مصادره المتعددة جدا ، ولذلك فإحالاته إحالات عالِم ، واستنتاجاته ، فى معظمها ، لا تزيد عن تكرار ما هو مألوف فى الذاكرة عن هذه الفترات ، لكن الجديد هو منهج البحث ، وكيفية النظر إلى هذا التراث الشعرى بهذه الرؤية الجديدة والواعية .

وفى العام التالى (١٩١١) كان الشيخ أحمد الإسكندرى بدرس « تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى » على طلبة مدرسة دار العلوم ، فأعدَّ كتابا بنفس العنوان .

وقراءة هذا الكتاب تنفى أدنى صلة بينه وكتاب الأستاذ « نالينو » ، ولعل ذلك يرجع إلى كون كتاب نالينو ظل فى حوزته مخطوطاً حتى اصدرته « مريم نالينو » عام (١٩٤٥) عن دار المعارف ، لذلك ظل هذا الكتاب بلا أثر يذكر فى مؤرخى هذه الحقبة.

يقسم المؤلف العصر العباسى إلى عصرين : الأول (١٣٢هـ - ٣٣٤ هـ) والثانى (٣٣٤ هـ ٦٥٦هـ) ، وهذ القسمة ستشيع فيما بعد . ويستعرض التاريخ الثقافى للمسلمين ،بما فيه الأدب ، فى أسلوب تعليمى بسيط ، ويبالغ فى الاحتفاء بالأعلام الذين اختارهم ، لذلك فإن « أفعل التفضيل » يتخلل الكتاب ، فأى شخص أو أى شىء اختاره هو الأحسن والأفضل والأسبق الخ .. وهو يستعرض فى عجالة تاريخ كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية ، معرفا بالاطار العام له ، وابرز اعلامه مع ذكر شىء من آثارهم .

وتزداد دراسته عمقا - فقط - فى الفصول التى تعرض فيها لدرس الشعر ، ففى العصر العباسى الأول يتعرض لأحد عشر شاعرا يشكلون عصب الشعر العربى ، يتعرض فى عجالة لسيرهم الذاتية ، ومنزلتهم (والمنزلة تعبير المولف نفسه) وتأثيرهم فى الشعر ، ومقتطفات لهم ، وهو فى ذلك ملتزم بما قاله السابقون عن هؤلاء الشعراء ، فإن اختلفت الآراء حول الشاعر ، وكثيرا ما يحدث ، وحاول أن يلتزم أحد هذه الآراء . فهو - جملة - لم يتعرض لهم برؤية نقدية جديدة .

وقد قدم لهؤلاء الشعراء ، بمداخل موجزة عن حالة الشعر بوجه عام وفنونه ومعانيه وخيالاته وأسلوبه وأوزانه وطبقات الشعراء ، مستخلصا عصارة الفكر النقدى القديم .

وفى العصر العباسى الثانى ، قسم الشعراء جغرافيا إلى صنفين :أهل المشرق وأهل المغرب ،وتقريبا ، ، أعاد نفس النسق السابق على بقية الشعراء المشاهير .

وهو - فى كل الكتاب - لم يتعرض للأغراض وتطورها ، بل تعرض للشعراء فردافردا دون أن يربط بينهم .

إن عنوان الكتاب يحيل على « آداب اللغة » بالمعنى الفضفاض ، ويؤكده بقوله إن « كتابنا .. موضوعه تاريخ اللغة والآداب وتشمل العلومُ العربيةُ اللغةَ والنحو والبلاغة والأدب » (٧٩) ، ولكن العلوم العربية تتسع إذا ما وصفت بالإسلامية ، فهو يقول : « أما موضوعات العلوم الإسلامية فقد شملت الشرعيةُ منها عدةً علوم كالتفسير والقرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض والخلاف والجدل والكلام وشملت اللسانيةُ منها اللغةَ والنحو والصرف والبلاغة بأقسامها والأدب الشامل لتاريخ الدول والمغازى والسير والنوادر والأخبار والنسب ورواية الشعر ، وغير ذلك » (ص ٧٤) ، وهذه « العلوم الإسلامية » هى ما يؤرخ له المؤلف ، وبذلك يخرج كتابه من دائرة التاريخ الأدبى بالمعنى الاصطلاحى ، ليندرج تحت التاريخ « الثقافى » للحضارة الإسلامية .

وهو يخلط خلطا بَيِّنا بين « علم الأدب » وتاريخ الأدب وعلم اللغة ، فإذا بكل شىء عنده أدب ، يقول : « علم الأدب عند أى أمة هو العلم الذى يبحث فيه عما اشتملت عليه لغتها من نتائج قرائح أبنائها ، وصورهم وخيالاتهم وما انطبعت عليه نفوسهم من فضائل أو رذائل ، من حيث ظهور أثر ذلك فى الخطب والشعر والرسائل والقصص والنوادر والأمثال ونحوها ، ليتعرف وجوه البلاغة منها ويحتذى جيدها » (ص٧٩) .

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا الكتاب يطرح - على استحياء - لأول مرة فى تاريخ الأدب الفكرة الشائعة عن الفروق بين الجنسين : السامى والآرى ، بحيث يجعل ما نتج عن هذه الفروق أساسا كبيرا للتغير الذى طرأ على الثقافة الإسلامية ، وستصبح فكرة الجنس مَعْلَماً - فيما بعد - لدى مؤرخى الأدب . أيضا ، فكرة الرفاهية وأثرها على الإبداع ، وكيف ساهمت تلك الرفاهية فى تغيير مجرى الشعر العربى (ص٧) ، وحين اقترن الجنس والرفاهية فى الأدب العباسى « بما ادخله الكتّاب والشعراء من أبناء الفرس والترك ومترجمى السريان .. (و) من عبارات بلغاء الفرس والهند

واليونان والروم » (ص٨) ، وانعكس ذلك - حتماً على الشعر ، فأنتج شعراً يقوم على - (والآتى بألفاظه فى اختصار) [1] الإكثار من الحجج والبراهين الشعرية العقلية وانتحاء مذاهب الفلاسفة فى الشعر والكتابة . [2] التصورات الغريبة والمعانى الدقيقة الظاهرة أثرها فى شعر بشار ، وأبى العتاهية و .. و .. (٣) المقتبسة سيما من اللغة الفارسية .

وفى نفس السنة (١٩١١) ظهر للوجود كتاب الأستاذ « جرجى زيدان » تحت عنوان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، ويشرحه على صفحة الغلاف كالتالى « يشتمل على تاريخ آداب اللغة العربية وعلومها وما حوته من العلوم والآداب على اختلاف مواضيعها وتراجم العلماء والأدباء والشعراء وسائر أرباب القرائح ووصف مؤلفاتهم وأماكن وجودها أو طبعها من أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن » . ويعيد نفس الكلام فى الجزء الأول جاعلاً كتابه « أشبه بدائرة معارف ، (حـ١ / ٥) ، » ومتى تم الكتاب ألحقناه بفهرس أبجدى للأعلام والمواضيع فيصير معجما للعلم والعلماء والأدب والأدباء ولما جادت به قرائحهم من التصانيف أو المنظومات ووصف كل منها ومحل طبعه أو وجوده »(حـ١ / ٥) ، وهو بهذا الكلام يعيد إلى الذهن صورة كتاب برو كلمان - الذى لم يكن قد ترجم بعد - فهو المشروع العربى لكتاب برو كلمان . وهذا الصنيع يجعله خارج نطاق التاريخ الأدبى ، وهو يُعَيِّنُ المدلول كالتالى : « المراد بتاريخ آداب اللغة تاريخ علومها أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم فهو تاريخ الأمة من الوجهة الأدبية والعلمية » (ص٩) .

وهو يؤكد أنه مؤسس هذا الضرب من التأليف ، و« أول من سمى هذا العلم بهذا الاسم « تاريخ آداب اللغة العربية » فنشرنا منه فصولا صدر أولها سنة ١٨٩٤ فى الهلال .. وآخرها فى السنة التالية وقد انتهينا فيه إلى تاريخ آدابها فى عصر الانحطاط » (حـ ١/٩).

ومنهج الكتاب يقوم على اعتماد التقسيم العصورى السائد مع بعض التعديلات ، حيث يجعل « الجاهلية » عصرين ، عصر الجاهلية الأولى من قبل التاريخ إلى القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام (حـ ١/٢٢) وهى فترة مجهولة ، وعصر الجاهلية الثانية من القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام (حـ ١/ ٢٧) .

وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى والعصر العباسى الذى يجعله أربعة عصور : الأول (١٣٢هـ -٢٣٢ هـ) ، والثـانى (٢٣٢ هـ - ٣٣٤ هـ) والثـالث (٣٣٤ هـ -٤٤٧ هـ) والرابع (٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ)، وهو يدمج شعـراء الأندلس مع العصـر الرابع و العصر المغولى ، والعصر الحديث .

وحين تَعَرَّض للعصـر الحديث - فى الجزء الرابع - فـإنه تتبع بعض افكار الأب لويس شيخو عن أسباب النهضة الحديثة ، وتوسع فى هذه القضية ، وهو ما نقله أحمد الزيات - فيـما سيلى - ونقله طه حسين فى مقدمة كتابه « حافظ وشوقى » وكثير غيرهما . وان كان المؤلف لم يتعرض للأدب إلا فى عجالة ، وجمل قصيرة لا تكشف عن أى درس أو عمق ، لذلك فالكتاب - كأجزائه الثلاثة السابقة - فى تاريخ النهضة الحديث وأبرز رجالها ودعائمها .

وحين مَهَّدَ المؤلف لحديثه عن المنهج فإنه قدم طريقتين : إحداهما تقوم على تتبع تاريخ الفن المؤرخ له ، وتحدث عنهـافى إيجاز و عمق يكشف عن إلمام ثقافى هائل ، وأخرى تقوم على التقسيم العصورى ، اتخذها منهجا ، لأن الطريقة الأولى - فيما يبدو لى - تحول بينه وبين مشروعه الهائل عن كتابة « دائرة معارف » ، هذه الدائرة تعيد إلى الأذهان بشدة « كشف الظنون » لحاجى خليفة ، « والفهرست » لابن النديم .

وفى نفس السنة التى أخرج فيها « جرجى زيدان » الجزء الأول من مشروعه المحتذى حذو « برو كلمان » (١٩١١) أخرج الأستاذ مصطفى صادق الرافعى الجزء الأول من مشروعه الضخم « تاريخ آداب العرب » .

ويبدأ الجزء الأول بالاعتراض على التقسيم العصورى الرسمى (وهو نفس ما قاله بإفاضة طه حسين فيما سيلى) الذى ابتدعه « المستشرقون من علماء أوربا قياسا على اوضاع آدابهم مما يسمونه « Littera ture » (حـ١/٩) ، ويرى « أن تلك العصور إذا صلحت أن تكون أجزاء للحضارة العربية التى هى مجموعة الصور الزمنية لضروب الاجتماع وأشكاله فلا تصلح أن تكون لتاريخ آداب اللغة العربية » (حـ ١/٩) . فإذا كان المستشرقون قد فعلوا ذلك « لمكان العجمة منهم إذْ - لا سليقة لهم فى العربية وآدابها .. ثم لأنهم يتعجلون الفائدة كيف أصابوها » (حـ ١/١٤) وجب علينا ألا نتابعهم فى ذلك ، ومن هنا « فالطريقة

المثلى أن نذهب فى تأليفنا مذهب الضم لا التفريق وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التى هى معانى الحوادث لا على العصور ننخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه إلى منتهاه متقلباً على كل عصوره سواء اتسقت ام افترقت فلا تسقط مادة من موضعها ولا تقتسر على غير حقيقتها ولا تلجأ إلى غير مكانها ثم لا يكون بعد ذلك فى التاريخ إلا التاريخ نفسه » (حـ ١/ ١٦) .

هذا يعنى أنه سيؤرخ للموضوعات (= الأغراض) ، ومروراً بكل العصور ، فـإذا أخذنا فى الحسبان إدراكه الواعى لمفاصل تاريخ الحضارة ، وأنه « فى كل امة راقيـة أربعـة أبـواب معتمدة علـى أركانـه وهـى الأدب والسيـاسة والديـن والعـلم » (حـ ١/ ١٢) أقول - إن هذا يَعُد بدراسة خالصة لتاريخ الأدب نظريا .

إن الأمر المثير للدهشة - كثيرا - أن الرافعى نشر جزأين فى حياته مفارِقَيْن تماما لهذا الفهم النظرى ،أولهما فى «علم اللغة » ويتعرض لها من الجانب التاريخى ، وفيه تبدو المشابهة - من حيث المنهج فقط - بينه وبين تصور حفنى ناصف - الذى لم ينجز - والجزء الثانى « فى القرآن الكريم والبلاغة النبوية » .

وتوفى الأستـاذ الرافعى - رحمه اللّه - ولم ينجز شيئاً يُعَـدُّ من « تاريخ الأدب » ، ولكن الأستاذ محمد سعيد العريان نشر الجزء الثالث عام (١٩٤٠) بعد وفاته بثلاث سنين - وهو فى الحقيقة مشروع كتاب ، إذ به سقط وخلل فى الترتيب - وهو الجزء الذى ينتمى فعلاً إلى تاريخ الأدب ويحقق الفهم النظرى الذى أبداه المؤلف فى مقدمة جزئه الأول . وثمة دلائل وقرائن تشير إلى أن هذا الجزء سابق على الجزئين الأول والثانى ، تأليفا ، أشار إليها الأستاذ العريان .

ويدور هذا الجزء حول رؤوس خمسة موضوعات : الأول : « فى تاريخ الشعر ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلتحق به وهو الجزء الذى يؤرخ للشعر من الجاهلية حتى آخر العصور الوسيطة ، وذلك من خلال تتبع أغراض الشعر العربى (الهجاء والمديح و« الفخر والحماسة » والرثاء و « الغزل والنسيب » والشعرالوصفى والشعر الحكمى و« الشعر الأخلاقى والمبادىء الاجتماعية » والشعر الهزلى والشعر القصصى والشعر العلمى والفنون المحدثة فى الشعر : الموشح والدوبيت و(الشعر العامى والمواليا) والزجل وفنون أخرى) .

وهو ، أساسا ، بحث فى تتبع تطور المعانى الشعرية ، دون الأساليب ، ومسبباتها من ملابسات حضارية أو اجتماعية ، لذلك يقل اعتماده على الشواهد الشعرية ، ممايجعل هذه الدراسات - على عمقها - مجرد مشروعات لدراسات أكثر خصباً . وهذه أول دراسة تؤرخ لتطور الشعر من خلال تطور أغراضه .

والموضوع الثانى : فى حقيقة القصائد المعلقات ودرس شعرائها . وقد تعرض - فقط - لامرىء القيس وطرفة و زهير . وامرؤالقيس هو الشاعر الوحيد الذى استغرق مساحة كبيرة فى الكتاب ، حيث تعرض لشاعريته وشهرته وشعره واستعارته وتشبيهاته ومبالغاته وقصته مع علقمة وأم جندب وهو يبدى إعجابه بامرىء القيس وينتقده ، على طريقة الباقلانى ، ولا يرضى عنه خُلقياً وسُلوكيًا ، إذ« لم يبق فى شعره فضل لشرف النفس والعفة والحفاظ » (حـ٣ / ٢٠٢) ولذلك فإن « غزل هذا الشاعر ساقط كله » (ص ٢٠٩) . وشعره عموما يجمع بين « الشريف والسخيف والمبتذل والضعيف ، حتى كأن شعره صُوِّرَ علي اضطراب اخلاقه ، ولا يُعَلَّلُ ذلك إلا بتفاوت الأحوال التى يقول فيها » (ص٢٠٨) ، ولذلك فهو يكون مرة نجما فى السحاب ومرة حجرا فى التراب . وسبب شهرة هذا الشاعر تأتى من ضياع شعر معاصريه ، ومن « أن الذى في يد العلماء من أهل الغريب والعربية وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلى ما اجتمع لامرىء القيس ، وهو عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه ، فشعره أشبه شىء بأقدم كتاب فى اللغة عند من يظفر به من المتأخرين ، وكأنما كان بعضهم يجلّه عن الانتقاد فى ألفاظه ، فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه وكيفما جاء به ، وإن كان ذلك لاشك فى فصاحته » (ص٢٠٥) .

والحق أن الرؤية الخلقية - والرافعى معدود بين مفكرى الاسلام - هى ما يغلف نظرته إلى فنون الشعر وأعلامه ، وإن كان المؤلف نجح كثيرا فى ألا يجعل منها حاجزا تحجب عنه فَنِّيَّةَ القول ، أو تقوده إلى مزالق أيديولوچية فجة .

والموضوع الثالث عن : أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية فيها ، وهو بحث فى التاريخ الحضارى - لا الأدبى - ستبرز الكثير من نقاطه فيما سيلى عند مؤرخى العصر الأندلسى ، - انظر فيما سيلى دراسة د/ إحسان عباس .

والموضوع الرابع بحث فى مصادر الأدب تحت عنوان : فى التأليف وتاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية . وهو نواة مشروع لم يكتمل - وسيكتمل فيما بعد ليصبح دراسات لها ثقل - وهذه نقطة ريادية للرافعى .

والموضوع الخامس: فى الصناعات اللفظية التى أولع بها المتأخرون فى النظم والنثر وتاريخ أنواعها . وهى تَتِمَّة الموضوع الأول، وفيه يتعرض للشعر فى العصور الوسيطة وما أضافه شعراؤها من زخارف شكلية إلى الشعر ، بعد أن وقف الموضوع الاول - غالباً - عند نهاية المولدين ، وعَنَىَ بهم العباسيين .

إن هذا الجزء يقدم رؤية متكاملة لتاريخ الأدب، ومفهوماً أصيلا للمصطلح ، ومع ذلك لم ينشره المولف - وقد سبق أن شواهد تقطع بأنه سابق التأليف على أخويه - ونشر الجزء الأول والثانى ، وتلك من عجائب المقادير .

وفى عام (١٩٢٠) أصدر الأستاذ أحمد حسن الزيات طبعته الأولى من كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، وظهور هذا الكتاب يعد طفرة هائلة فى تاريخ الأدب .

وهذا الكتاب على قدر من التضج كبير . وهو يلتزم التقسيم العصورى ، ولكن بجعلهم خمسة كالتالى (جاهلى - أموى - عباسى - تركى - حديث). وللمرة الأولى نجد محاولة جادة لدرس الأدب الحديث ، ومحاولة ربط الأدب العربى بالآداب الأجنبية - وهى محاولة ضئيلة ومحدودة - فللمرة الأولى نجد ترجمة شبه كاملة (مستغلة ما قدمه السابقون كالأب لويس شيخو والأستاذ جرجى زيدان) للنهضة الحديثة ورجالها وتتبع طلائع الإحياء منذ نابليون وماأحدثه من جو ثقافى تلقفه محمد على وسار به شوطاً كبيرا ، ومع ذلك به بقايا التوسع فى ضم ما ليس بأدبى إلى الأدبى ، كالحديث عن العلوم الشوعية وأغراضها (٣٧٨ -٣٨٥) والعلوم العقلية . والمؤلف يلتزم فى أغلب الكتاب الطريقة القائمة على التراجم وتذييلها بشواهد شعرية .

وللمرة الأولى يتم التأريخ للنثرالأدبى الحديث ، كالكتابة والقصة والرواية والمسرحية والأساليب ،(ص٤٣١) ، فبعد أن يميز بين أسلوبين نثريين : أولهما جديد يقلد أسلوب ابن خلدون ، وثانيهما تراثى سلفى يقلد مقامات الحريرى ، يشير إلى ثالث ، وهو أسلوب المهجريين الذاهب فى مذهب الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة (وهذه الملاحظة عن أسلوب المهجريين سوف تغدو قضية يبنى عليها كثير من الباحثين

أبحاثهم بين مؤيد (كطه حسين) ورافض (كجورج صيدح). فما كان من رد الفعل الذى لابد منه لهؤلاء الطرائق الثلاثة أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعا ، تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربى الخالص مكمل النقص بما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الحديث . (وللمرة الأولى يتم تقديم مصطلح الإحياء ، الذى سوف يغدو مَعْلَما بارزا على تلك الحقبة ، وسيصبح عند الدكتور أحمد هيكل : الاحياء البيانى ، وهما لفظا الزيات) ، ويكمل المؤلف موضحا الفكرة : استبانت معالم هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ، كما استبانت فى شعر البارودى ، ثم نهجها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد .

وللمرة الأولى يشير مؤرخ الأدب إلى دعاة العامية ، مُحَقِّراً ، معلقا فى تعال « فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولابيان لها » (ص ٤٣٣) . وأيضا للمرة الأولى نجد إشارة إلى الفن الروائى والمسرحى ، ومحاولة تاريخ ساذجة لهما .

هذا عن المنهج والرؤية الفردية للموضوع . أما من حيث المضمون ، فإن الكتاب لم ينجح فى تقديم تاريخ الأدب العربى ، فالفكرة التى أرادها المؤلف ، لخصها كالتالى : « وأنت إذا أخذت الشعر العربى كله بنظرة واحدة ، فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحى وجدته قد تطور فى موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية ، فهو فى الجاهلية أنغام صبى ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة ، وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ثم استحار شبابه واكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما عبث شباب وأغانى طرب ومظاهر ترف ، ثم عَضَّ على نواجذ الحلم واكتمل فى أوساطها فبدا فى شعر ابن الرومى وابى تمام والمتنبى وأمثالهم دروس تجربة ونتائج حكمة وخواطر فلسفة ثم أدركه الهرم فى أواخرها فظهر فى المتأخرين تمويه صنعه ، وخرف شيخوخة ومعالجة روح . أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا فى علمه » (ص ٢٥٤) .

وربما كانت هذه الفكرة فى ذاتها صوابا ، وهى من المعارف العامة المركوزة ولكن الكتاب قد رُتِّبَتْ مفاصله لتؤدى إلى هذه الفكرة ، مما صرف المؤلف عن رؤية الأدب فى ذاته ، فى أساليبه وصوره ومعانيه ، ولذلك كان اصطفاء أسلوب التراجم خادماً لنقل الفكرة الأساس .

يبدأ الكتاب بتقديم مفهوم للأدب مازال مرتبطاً ببقايا الفهم التراثي ، حين كان الأدب وسيلة لاكتساب محاسن الصفات ، « فأدب اللغة ما أُثِر عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصوير الأخيلة الدقيقة ، وتصوّر المعانى الرقيقة مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان .وقد يطلق الأدب على جميع ما صُنِّفَ فى أى لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية ، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء أو قرائح الكتاب والشعراء » (ص٣) .

وهذا الفهم الواسع للأدب قد حدا بجعل تاريخ الأدب - نظريا - تاريخ لغة وأدب ، يقول : « تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما انتجه قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر فى مختلف العصور ، وعما عرض لها من أسباب الصعود والهبوط والدثور ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن ونقد مؤلفاتهم ، وبيان تأثير بعضهم فى بعض بالفكر والصناعة والأسلوب ، (ص٣ . ٤) (١٠) .

(ومما يذكر له فى هذا الباب أنه أول من ترجم الكلاسية والرومانسية إلى الاتباعية والابتداعية (ص٣٠٠) وهما المصطلحان اللذان سينبنى عليهما ومصطلح الإحياء كتاب الدكتور أحمد هيكل فيما بعد) .

ولا يخفف من نقدنا له تقديمه كتابه بهذه السطور المتواضعة « إن هذا العلم فى العربية وليد ، والبحث فيه طريف جديد . ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله ، وألممنا فيه بأصوله لا بفصوله » (ص٢) .

وفى العام التالى (١٩٢١) أصدر الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابه « أدبيات اللغة العربية » فإذا به يعيد نسق كتب الجاحظ : احتقاب مجموعة من المثل العليا أمام التلاميذ ليضع أمامهم نماذج لفن القول . فَعَدُّهُ من تاريخ الأدب وَهْمٌ وادعاء .

وبعد اربع سنوات أصدر الأستاذ حمدان مصطفى عام (١٩٢٥) الطبعة الاولى من كتابه « كتاب الخلاصة الأدبية فى تاريخ آداب اللغة العربية » ، والمؤلف من مدرسى اللغة العربية وآدابها فى دار العلوم فى ذاك الوقت ، ومن قبله كان الأستاذ أحمد الاسكندرى ، ومن ثم يسير هذا الكتاب فى نسق كتب مدرسى دار العلوم ، حيث « الأدب هو كل ما يؤدب الإنسان ويبعث فيه الفضيلة وينهاه عن الرذيلة » (ص ٤) ، وهو نفس الغاية الخلقية التى رآها من قبل الأستاذ المرصفى (١٨٧٥) ، لذلك فإن تاريخ الأدب « هو الفن الذى يبحث فيه عن أحوال اللغة العربية فى أدوارها

المختلفة من رقى وانحطاط وقوة وضعف وعما طرأ على الأدب من منثور ومنظوم ترفيها وتحسيناً وصعودا وهبوطا مع ذكر الأسباب وتراجم النابغين وما كان لهم من التأثير فى مختلف العصور ، فيحتذى الطالب ما يروقه ، ويتنكب ما يستنكره .. والأدب عند العرب يشمل كل ما يصلح العقل واللسان ويهذب الفكر » (ص٥) .

وهو نفس كلام الأب لويس شيخو ، والأستاذ جرجى زيدان والأستاذ نائل المرصفى ، ونفس الخلط بين اللغة والأدب ، ونفس الفهم الفضفاض للأدب .

ويقوم منهج الكتاب على تبنى التقسيم العصورى الرسمى ، فيجعلهم سبعة عصور (جاهلى - صدر الإسلام -أموى -عباسى - المغولى - التركى -النهضة الحديثة) . وعلى العموم ، فالكتاب يشبه كتب التراث ، وخصوصا كتب الجاحظ ، فيعيد نفس النسق التراثى عن التأليف الأدبى .

وعلى نفس منوال مدرسى دار العلوم أخرج الأستاذ السباعى بيومى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربى » عام (١٩٣٢) تحت عنوان « فى العصر الجاهلى » وبعد ثلاث سنوات صدر الجزء الثانى (١٩٣٥) تحت عنوان « فى صدر الإسلام والعصر الأموى » .

وهو من حيث المنهج يتبع التقسيم العصورى الرسمى المألوف . وهذان الجزآن يشبهان كتاب الرافعى فى جزئيه الأول والثانى ، بعد أن يتخفف المؤلف من علميتهما كثيرا ، لذلك فالأفكار تتشابه والتناول يتشابه ، ولكن الفرق أن دراسة الأستاذ السباعى تأتى سطحية ، وليس فيها إلا ترديد لشائع الأفكار مكتوبة بلغة حماسية . وهذه الدراسة - إجمالا - تعيد إلى الذهن نسق كتاب « البيان والتبيين » حيث تعتمد على حشد الشواهد الشعرية والنثرية وتبويبها وترتيبها فقط وليس فى الكتاب أدنى إضافة يمكن أن تعد مساهمة فى التاريخ الأدبى .

وفى نفس العام (١٩٣٢) نشر الدكتور طه حسين دراسته الشهيرة « فى الشعر الجاهلى » ، والتى صدرت فى السنة التالية (١٩٣٣) تحت عنوان « فى الأدب الجاهلى » بعد تخفيف حدة التعرّض للدين ، وحذف الفقرات المثيرة التى ألّبتْ عليه الخصوم .

ولأول مرة تقابلنا رؤية مكتملة وواعية بحقائق التاريخ الأدبى وقضاياه . يبسط هذه الرؤية المؤلف فى أول كتابه مؤرخا - وللمرة الأولى - للدراسات التى تناولت

« تاريخ الأدب » ، محددا مدلوله ، وثقافة المؤرخ ، والعلاقة بين الأدب وتاريخه ، وكيفية دراسة الأدب تاريخيا ، أو بتعبيره هو « مقاييس التاريخ الأدبى » ، ويرفض التقسيم العصورى ، مُرَدِّداً فكرة الرافعى ، ولكن بشرح أعمق وإسهاب أفضل ، ويرفض أيضا المقياس العلمي ، ورموزه : سانت بوف الذى يقوم منهجه على دراسة الشخصية الفردية ، وهيبوليت تين صاحب نظرية الثالوث الشهيرة « الجنس - البيئة - الزمن » وبرونتيير متبنى نظرية النشوء والارتقاء لدارون ، ليقدم هو بديلا يسميه « المقياس الأدبى » (ص٤٥) ، وهو خليط من الذوق والعلم ، ولكن المشكلة التى لم يلتفت إليها الدكتور طه حسين ، هى أن هذا المقياس الأدبى يشير إلى ثقافة المؤرخ فقط ، وسنظل بحاجة ماسة إلى تقسيم هذا العمر المديد للأدب العربى الذى تجاوز الخمسة عشر قرنا تحت أى مسمى ولن يكون من بين هذه المسميات « المقياس الأدبى » ، لأن هذا المقياس يحيل إلى التكوين الثقافى للمؤرخ الذى يتبنى أى تقسيم سيرتضيه .

ثم يشير إلى معوقات التاريخ الأدبى ،(ص ٥٠) ، وللأسف أغلب هذه المعوقات مازالت قائمة ، وينهى حديثه بالحديث عن الحرية والأدب وهو يعنى به « حرية الرأى »(ص٥٣) ، ولعل هذه الفقرة من تأثير ما جَرَّتْهُ عليه آراؤه ، وللمرة الأولى يقابلنا الفهم العصري جدا لمصطلح الأدب ، حين يصرح « بأن الأدب ليس علما من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ،وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام » (ص٥٧) .

والآراء السابقة كلها آراء ممتعة متأملة ، لاينقصها شيء سوى الحدة والمبالغة فى تعنيت المؤرخ بوجوب علمه بكافة العلوم .

فإذا انتقلنا من المنهج إلى المحتوى ، سنجد المفاجأة المذهلة أن المؤلف ينفق جزءا ضخما من كتابه فى المماحكة والاستطراد (وتلك عادة المؤلف) ، ولايعنى بدرس تاريخ الأدب إلا بما يحقق هدفه فقط ، وهو « الشك » ، لذلك فالكتاب (على علو قيمته) لا يقدم شيئا مهما (باستثناء الشك) والشك نفسه وضعه الدكتور **ريجيس بلا شير** (وسيأتى ذكره) فى سياقه التاريخى مع المستشرقين فظهر د/ طه شيئا هينا ، إذا كان يتابع **مرجليوث** وسواه .

إن قيمة هذا الكتاب تتمثل فى انه أزال غشاء القداسة عن التراث ، وفتح الباب على مصراعيه أمام المحدثين ليحاكموا التراث ، وفق رؤاهم هم ، وليس وفق ما يتحمل التراث الأدبى نفسه .

إن الخلاصة التى يهدف إليها الكتاب من ألفه إلى يائه عن الشعر والنثر هى « أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلين » (ص٦٣) . ومن أجل هذا فقد رُتِّبَتْ مفاصل الكتاب وأجزاؤه لتقود إلى هذه الغاية ، مما أبعد الكتاب عن أن يكون « تاريخ أدب » . وهذا يدفع إلى القول - باطمئنان بأن هذا الكتاب يقدم فهما ناضجا لمفهوم « التاريخ الأدبى » على المستوى النظرى ، ووعيا كاملا بإشكالياته ، أما على مستوى الدراسة ، فليس هناك تاريخ أدب فى هذا الكتاب .

وظلت بقايا الفهم التراثى لمصطلح تاريخ الأدب تعلن عن نفسها - فى خفوت - ، وبدأ الوعى النقدى يتخلص من هذا الفهم شيئا فشيئا . ومن هذه البقايا دراسة الأستاذ محمود مصطفى تحت عنوان « الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى » ، وقد ظهرت طبعتها الاولي فى نفس سنة إصدار كتاب طه حسين السابق (١٩٣٣) ، وطبعتها الثانية فى (١٩٣٧) . وليس هناك فرق بين الطبعتين كبير . وهذا الكتاب ، يعيد نفس االنسق التراثى الموروث عن الأدب وهو « الثقافة » ، ولذلك فهو كتاب فى تاريخ المعارف العربية كلها .

وتشهد سنة (١٩٤٥) تطورا هائلا فى التاريخ الأدبى ، فقد صدرت فيها ثلاث دراسات تؤرخ لموضوعات مستقلة ، وكأن هناك إحساسا بإخفاق المنهج العصورى الرسمى .

أولى هذا الدراسات ، دراسة الدكتورة سهير القلماوى عن « أدب الخوارج فى العصر الأموى » ، والدراسة تحدد موضوعها بدقة ، مما يترك أثره على النتائج ، والكتاب دراسة قيمة ، وإن عابه الخلط بين تاريخ الأدب والنقد ، فقد انتقت الباحثه « ثلاثة شعراء (قطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح) وجعلتهم ممثلين لأدب الخوارج ، فدخلت بدراستهم مجال النقد ، وإن حاولت هى أن تخرج من خلالهم

بسمات أدب الخوارج . وروح الأستاذ العقاد ظاهرة فى الدراسة من حيث الغرام المطلق بشخصية الشاعر ، وشخصية الخوارج ، وانعكاس هاتين الشخصيتين خلال النتاج الشعرى . فهى حين تقول - مثلا - « يصطبغ أدبهم بلون شخصىّ قوى . فهم ينظرون لأنفسهم كوحدة متميزة وكل من عداها سواء ، وامتاز أدبهم من سائر آداب عصرهم بأنا نحس شخصية الشاعر أو الخطيب كأقوى ما يمكن أن تحس شخصية الأديب فى أثره . وأكثر ما أبدع فيه شعراؤهم ما قالوه حول أنفسهم وما يمس تلك النفس من حب لها أو تصوير لما تؤمن به أو لما تحب أو تكرة (ص٤٦) ، فإن هذا الكلام هو كلام العقاد عن الشعر الصنعة وشعر الشخصية ، وما قاله عن ابن الرومى ، وما عاب به أحمد شوقى ، وهذا الولع بالبحث عن الشخصية يطبع الدراسة كلها .

والدراسة الثانية هى دراسة الدكتور **سيد نوفل عن « شعر الطبيعة فى الأدب العربى »** . ومنهج هذه الدراسة جديد ، فلم يعبأ بالتقسيم العصورى ، ولكنه يقوم على افتراض خط تطور للشعر ، حيث يوزعه على ست مراحل : الأصالة ، والتقليد (= العصر الجاهلى) ، (٣) والجمود (= صدر الإسلام وبنى امية) (٤) الإحياء (= رجز رؤبة وابنه العجاج ومقلديهما) (٥) والانتقال (= العصر العباسى) (٦) والنهضة (الأدب فى الأقاليم) ومن خلال افتراض هذه المراحل (وأحيانا الأدوار) الستة يتعقب الدارس رحلة الشعر العربى - المتعلق بوصف الطبيعة - خلال كل عصوره ، عدا العصر الحديث ، محاولا الربط بين الشعر العربى والشعر الأجنبى من خلال المصطلح والمقارنة بشعر الطبيعة الأوربى .

وعلى كل حال ، فنتائجه ليست جديدة مطلقا ، ولكنها دراسة جيدة ، وإن أبرز ما فى الدراسة هو تَبَنِيّ آراء « تين » و« بوف » معا ، فهو يعلن منذ بداية الدراسة أنه « إذا كان الأدب نتاجا للبيئة وشخصية الأديب لم يكن مناص من تقدير هذين العاملين وما يتصل بهما ، فعنيتُ بتبيان أثر البيئة فى شعر الطبيعة ، وتوجيه المنتج بدوافعه الذاتية له » (ص٢) .

وقد يوقعه هذا المزج من ناحية وحرصه على تأكيد عروبة الثقافة من ناحية فى بعض الاضطرابات ، فهو - على سبيل المثال - يؤكد أن الاعاجم أثروا فى الحضارة العربية ، وليس فى الشعر ، وبلفظه هو : « أما الشعر العربى فقد بقى فى أصوله عربيا فى العصر العباسى كما كان عربيا من قبل ، وكما ظل عربيا إلى العصر

الحديث . والعرب أنفسهم قد وضعوا الأدب بمعزل عن العلوم الحديثة التى نقلوها فقالوا علوم عربية وعلوم أجنبية ، وذكروا الشعر فى الأولى . وهذا الجديد أو البديع ، كما يحدثنا علماء العرب وشعراؤهم لذلك العصر نفسه ، عربى الجملة والتفصيل ، قال الجاحظ عَلَمُ النثر والنقد فى القرن الثالث : والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان . وهذا نص قاطع الدلالة فى الباب » (ص ١٨٨) . ثم يعود ليقرر أن الحضارة قد أثرت فى الشعر مناقضا ما سبق طرحه آنفا : « فتطور شعر الطبيعة لذلك العصر كان طبيعيا تقتضيه الحضارة الجديدة ، وكان الأعاجم أصحاب حظ فيه بقدر ما ساهموا فى بناء هذه الحضارة أو أثروا فيها . والحضارة وثيقة الصلة بتطور هذا الفن الشعرى . وذلك بأنها تقدم من الصور والتماثيل للطبيعة ما يزيد الشعور بجمالها ، وما يقدم للشعراء من نماذج فنية تساعد على التجويد والإتقان ، كما كان للأعاجم حظ فى صرف العرب عن ماضيهم وفتنتهم بالحاضر الباهر ، فتعلقوا به ، وأقبلوا عليه يجلون محاسنه ، حتى رأينا من العرب أمثال الفيلسوف الكندى الذى ينكر المثل العليا البدوية ويهيم بالحاضر الحضرى » (ص١٨٩) .

ويتسع مفهوم البيئة عنده ليشمل كل شيء ، فهى « تتألف من عناصر تاريخية وجغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية » (٣١٠) ، وهذا المعنى الفضفاض للبيئة ، والتى هى الماضى والحاضر ، هو ما يجابه به الدارسُ النصوصَ ، فإذا بها كلها - وهذا أمر طبيعى جدا بناء على هذا المفهوم البيئى - انعكاس للبيئة ، فهو يرى أن الشعر أصابه الجمود والتقليد فى العصر الجاهلى ، « وأصبح الشعراء يرددون فى الطبيعة نغمات معادة ، ويكررون معانى مطروحة » . (١١٠) وهذا سببه العنصر التاريخى (= الماضى) من البيئة ، ويستمر هذا التقليد والجمودفى العصر الأموى ، فيصبح العنصر السياسى من مفردات البيئة هو العاملَ الفعال « إن الأحداث السياسية هى التى قَسَّمَتْ الشعر العربى على هذا النحو : غزل فى الحجاز ، مستهتر فى الحضر ، وعفيف فى البادية . وسياسى عند الخوارج والشيعة ، ومدح وتقليدى عند شعراء الأقاليم .. اصطنع أهلُ الحجاز الغزل الجاهلى الذى بلغ ذروته عند الشاعر الأعشى المغنى .. أما أهل البادية فقد أصطنعوا الغزل الشعبى الملائم لبيئتهم ، ... ، وكان الفريقان مقلدين لم يخرجا على الأصول القديمة » (١٢٥ ، ١٢٦) ، « وإذا كان

الجمود متصلا من الجاهلية إلى العصر الأموى ، فإن صدر الإسلام هو أيضا فترة جمود وتقليد ، ولكن ليس بدافع العنصر الدينى ، كما هو شائع ، ولكن بدافع عنصر البيئة التاريخى ، فلم يكن الرسول ولم تكن دعوته سببا فى الجمود الشعرى ، وإنما كان تطورا طبيعيا لما انتهى إليه العصر الجاهلى ، وآية ذلك أن الشعراء حين اتصلوا بالدين اصطنعوا أساليب قديمة ، ولم يجددوا حسب مقتضيات الحياة الإسلامية » (١١٣) .

وربما كان أبرز ما فى هذه الدراسة ، هو تخليها عن فكرة القسيم العصورى ، وهذا الإلحاح فى الربط بين البيئة والشعر ولكنه لم ينجح إذْ جعل البيئة تحيل إلى كل شىء .

أما الدراسة الثالثة ، فهى دراسة الأستاذ أحمد الشايب بعنوان « **تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى** » (١٩٤٥) . وربما كان العنوان أكثر تحديداً من « شعر الطبيعة » ، إذ يقتصر على فترة أقل .

وبخصوص المنهج ، فإن المؤلف يبسطه فى مقدمته كالتالى : « أما المنهج العام لهذه الفصول فقد قام على أصلين : أحدهما سياسى ، والثانى فنى ، وعاش الثانى فى إطار الأول محتفظاً باستقلاله الذاتى ، وطوابعه الخاصة ، وقد لاحظتُ فى هذا الأصل السياسى أن يساير التكوين الطبعى للجماعة ، وخضوعها لأطوار الزمن وعوامل الحضارة ، والطابع السياسى لكل دور حسبما تراءى لى .. أما الأصل الفنى فقد أقمناه على الخواص الأدبية للشعر السياسى نفسه ، فلحظناها فى كل عهد من هذه العهود عامة ، وفى كل حزب من الأحزاب فى العصر الواحد ، وعند كل شاعر فى حزب قدر المستطاع ، وحاولنا أن نردها إلى عللها السياسية والدينية والمكانية والشخصية ، لعلنا نوفر لهذه الدراسة عناصر التاريخ الأدبى التى تلائم هذا الموضوع » (ص.ب وج) .

والآن : هل تحققت - فعلاً - عناصر التاريخ الأدبى ؟ . الواقع أن هذه الدراسة تبتعد كثيرا عن تاريخ الأدب ، بقدر ما تقترب كثيرا من **تاريخ الأفكار السياسية فى هذه الفترة** . فهى لا تؤرخ « **للأدبى** » بقدر ما تؤرخ « **للسياسى** » ، صحيح أن المؤلف يبحث فى الارتباط الوثيق بين الشعر والحياة ، وانعكاس ذلك فنيا على الشعر من حيث : الموضوعات والمعانى والصياغة والتجربة الشعرية ، ولكن

« العنصر السياسى » طغى على « العنصر الأدبى » مما يدخل الدراسة فى مجال **تاريخ الفكر السياسى أساسا** . ولكن ذلك لا ينفى جودة الدراسة - شأن أكثر دراسات الأستاذ الشايب - وجدتها .

وفى السنة التالية (١٩٤٦) نشر الأستاذ **أحمد الشايب** دراسته القيمة « تاريخ النقائض فى الشعر العربى » . والدراسة أعمق مما يحيل عليه العنوان ، فقد تتبع المؤلف تاريخ الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى ، فهو يصرح بأنه « إذا كان الفخر والهجاء والحماسة هى الفنون الرئيسية لفن النقائض الشعرى ، فقد تناول أيضا الرثاء والنسيب والسياسة والمديح ، وكانت هذه الفنون الفرعية من عوامل المناقضة وعناصرها منذ وجد هذا الضرب فى الجاهلية » (ص١٢) . ومن خلال تتبع : الفخر والهجاء والحماسة والرثاء والنسيب والسياسة والمديح (وماذا تبقى من اغراض الشعر ؟!) يتناول المؤلف تاريخ الشعر العربى ، بعد أن أدخل تعديلاً هائلا على مصطلح النقائض ، ليبيح لنفسه هذه السياحة التاريخية ، وذلك بأن جعل كل حوار بين اثنين شعريا أو نثريا أو نثرا وشعراً معا ، داخلاً تحت مفهوم النقائض .

يبدأ المؤلف - متحمسا - ليرد النقائض إلى أصول جاهلية ، وهذه الأصول كانت مكتملة ، و« ظفر الإسلام به (= فن النقائض) فنا موطأ الأكناف ، كثير الأبواب ، فاستغله فى سبيل دولته ، حتى إذا جاء الأمويون أشعلوه ناراً موقدة كانت ، فى نزعتها ، رجعة جاهلية عاصفة فى ظل الدولة الإسلامية » (ص٢) .

ولعل أخطر ما فى هذه الدراسة ، ذلك المزلق الذى ينقاد إليه المؤلف ، حين يقرأ الشعر نافياً عنه شعريته فيحيله إلى وثائق اجتماعية وتاريخية ، ليعطى نفسه كامل الحق فى الربط بين البيئة وظروفها ونشأة النقائض جاعلاً « أفكار » النقائض انعكاسا حتميا لهذه الظروف الاجتماعية ، أو بعبارة ماركسية - لم يقلها - فقد جعل الباحث الفن انعكاسا للنظام الاقتصادى ، والكتاب ملىء بمواطن الربط (مما يجعلنى فى حل من إيراد الشواهد) فمثلاً « كانت طبيعة الحياة الجاهلية أبعد الأسباب فى نشأة المناقضة بين شعراء العربية قبل الإسلام .. ظهر .. الإسلام فاتخذها شعراؤه أداة جدلية فى ذلك الصراع الأدبى .. أخص ميزات هذه الحياة القديمة هى البداوة الفقيرة ... هذه البدواة أدت إلى ظاهرتين طبيعيتين : إحداهما الفقر الحسى والعلمى .. ، والثانية هذا الغنى النفسى » (ص ٣١، ٣٢) .

سنجد حتمية فى التراتب : طبيعة حياة جاهلية سمتها الفقر والبداوة تؤدى الى الفقر المادي والغنى النفسى ، مما يقود - فى النهاية - إلى حتمية نشوء النقائض ، نتيجة الصراع الاقتصادى (إنها افكار ماركس عن الرأسمالية وصراع الطبقات).

وأخطر ما فى الأمر ما سيلى ، حين يقرر المؤلف فى ثقة مطلقة أن هذا الفقر والغنى النفسى جعلهم مثاليين على المستوى الأخلاقى ، بل هم صارمون ومتزمتون جدا فى التزامهم الخلقى ، فهم لا يكذبون ولا يغدرون ولا يسرقون ويحترمون الكلمة إلى أخر هذه المثاليات . وبناءعلية تصبغ النقائض (ولماذا ليس الشعر كله ؟ !) محتوية على معلومات حقيقة عنهم : أشخاصاً وتاريخاً وواقعاً اجتماعيا واقتصاديا الخ ... فإذا ما وجدنا « الهجاء » ركناً أصيلاً وغرضا جوهريا فى الشعر القديم قال المؤلف فى ثقة المؤمنين إن أخلاق المهجوين شذوذ عن القاعدة ويجب أن نسلم بأن ، عندهم ، الفخر كان بما هو شائع والهجاء بما هو نادر .

والآن : لماذا يؤدى انفقر إلى المثاليات ؟ وهل هو أمر حتمى ؟ . ولماذا ليس العكس ؟ خصوصاً أن المكر والدهاء سمة الفقراء الذين يحتالون على ظروف عيشهم . وأيضا : لماذا لا يكون الفخر بما هو نادر ، فتستحق الصفة غير الشائعة إظهاراً لها ، وأى ميزة أن يفخر شخص بأنه غنى وسط أغنياء ، مثلا . ويكون الهجاء بما هو شائع ؟ . ولكن يبدو أن هذا التصديق لكل ما يقوله الشعراء أمر واقع ، حتى لدى الأجانب ، يقول نيكلسون : « إنك لن تجد خلقا يميز العربى الكافر (الوثنى) أو المسلم أقوى من الشهامة وأن يضحى بنفسه فى سبييل أصدقائه دون انتظار لثواب . وقديم الشعر - بشكل أخص - يمنحنا الدليل على كونهم يأسفون بشدة على كل جار ينكث بعهدجاره » . (١٢)

وقد رد هذا التصديق الدكتور نجيب البهبيتى إلى القدامى من النقاد الذين « قدروا الشعر وقوموه ، وتذوقوه على أساس شخص الشاعر وعلى مقتضى مفهوم البيئة البدوية التى كانت تعاصرهم . وكان الشاعر القديم غير البدوى الذى كانوا يرونه ، ويطلبون عنده الشاهد أيام الجمع ، كما كانت بيئة الشاعر القديم تفارق فى كثير جدا بيئة الشاعر البدوى المتأخر ، ومن هنا أبعدوا أنفسهم عن فهم النص ، بقدر ما تبعد الشقة بين الشاعرين وبين البيئتين . ومن هنا كانوا يقعون ، ويقع معهم من ذهب من المتأخرين مذهبهم ، فى عجب من ورود أمور فى الشعر لا تتناسب فى نظرهم مع

بيئتهم التى قدروها ،ومع تصورهم عن الحيـــاة فيها ، وعن مجتمعها البدائى الساذج » .

إن المزلق الذى تقود إليه قراءةُ القصائد حقائق اجتماعية هو نفى الشعرية عن النصوص ، وبذلك نحولها الى وثائق اجتماعية وتاريخية قليلة الشأن فنيا . ولنفرض أن الشعر يعكس الظروف المحيطة بة ، أليس من حق الفن أن يتدخل فى هذه الظروف بالحذف والإضافة والجمع والتفريق على نحو بسيط أو عظيم ؟ . وأليس مفترضاً أن الرؤية الشخصية جداً للشاعر تعمل فى هذه الظروف عن طريق الوعى واللاوعى والأحلام والرؤى والمخاوف الفردية ؟ . ثم ألا تحيل قراءة الأستاذ الشايب - وأشباهه - النصوص إلى متون لغوية تؤرخ لحياة العرب ، وهنا : أى فرق سيكون بينها وبين متون العلوم ؟ .

وإذا سرنا مع الأستاذ الشايب ووجدناه يقول : « إن الفخر يصدر عن نفس متعالية متعاظمة ، .. ، بخلاف الهجاء فإنه يصدر عن نفس ساخطة أو مزدرية أو سافرة » (ص٣٥) أليس يعنى ذلك انهما فنان مفارقان للواقع يقومان على : الكبر والازدراء ؟! .

وشاهد أخير على هذه القضية ، حينما رثى جرير زوجه ، وأورد المؤلف الأبيات (ص ١٥) :

لولا الحياءُ لَهاَجنى استعبارُ ولزرتُ قبرَك والحبيبُ يُزارُ
نعْمَ القرينُ وكنت علقْ مَضنَّة وارى بنَعْف (بُلَيَةَ) الأحجار
عَمُرَتْ مكرَّمَةَ المَساكِ وفارَقَتْ مَا مَسَّهَا صَلَفٌ ولا إقْتَارُ

وقد رد عليه الفرزدق ناقضًا معانيه ، هاجيا لها :

كانت مُنَافَقَة الحياة و مَوْتهُا خزْىُ علانيةً عليكَ وعارُ
فلئن بكيتَ على الإتان لقد بكى جَزَعاً غَداةَ فراقها الأعيارُ
تبكى على امرأةٍ وعندك مثلها قعساءُ ليس لها عليك خمارُ

والآن : لابد أن يكون أحدهما كاذبا. فلا يمكن أن يكون كل الشعر صدقاً ، خصوصاًفى النقائض ، وجرير - كما ينقل المؤلف - (ص ٣٨) يقول « إذا هَجَوْتَ فأضْحكْ » .

الأمر الأخير ، إن المؤلف بدا متحمسا لهذا التجديد الذى طرأ على الشعر فى

العصر الأموى ، فمنذ المقدمة والمؤلف يقرر فى ثقة واطمئنان « إن هناك فنوناً من الشعر ثلاثة ظفرت فى ظل الأمويين بتجديد قوى ونشاط واضح جعلها أشبه بالفنون المستحدثة ، هى النقائض والشعر السياسى والشعر الغزلى » (ص هـ) ، لينتهى فى آخر الكتاب الى نتيجة مغايرة تماماً ، فيقرر - أيضا فى ثقة واطمئنان -: « يمكن اعتبار النقائض ، إلى حد كبير ، امتداداً ناضجا للشعر الجاهلى وتطوراً خطيراً له ، وربما كانت تاريخاً للحياة الجاهلية نفسها أكثر من الشعر الجاهلى فى أكثر من جهة كالأيام والحوادث وشخصيات القبائل القديمة ورجالها ، وقد شبه هؤلاء الفحول بفحول جاهليين كالأعشى وزهير والنابغة . وظهر الروح الجاهلى فى شعرهم واضحاً (٣٩٣) ، والآن : ألا يتناقض هذا مع مفهوم التجديد ، خصوصا وان المؤلف يؤكد هذا التناقض بقوله « كان شعر النقائض جزلاً فخما غريب الألفاظ ، .. ، وكانت النقائض تأخذ معانيها من الماضى كثيراً ،... وكانت النقائض مشغلة الفحول » (ص ٩٣٤) .

وفى العام التالى (١٩٤٧) نشر الدكتور زكى المحاسنى أطروحته للدكتوراه عن « شعر الحرب فى الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى » . وهو من الكتب التى يشعر قارئها بكثير من العنت ، إذ تبدو عليه الانطباعية و الاندهاش والحرية الفكرية ، بشكل يجعله على هيئة الخواطر أكثر منه دراسة علمية . ومع ذلك فيه كثير من القضايا الجديرة بالانتباه .

أول هذه القضايا هى ربطه بين الأدب والتاريخ ربطا لاتنفصل عراه ، فعنده « ما كان أدب العرب و لا شعرهم فى زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم ، إن كل قصيدة من قصائدهم مربوطة بحادث يمت إلى التاريخ ويمسه من قريب أو بعيد » (ص١) ، وقد دفعه هذا الربط المبالغ فيه إلى الإكثار من المقدمات التاريخية . « ومما يلفت فى اثناء ذلك اعتماد المحاسنى على الشعر فى فهم التاريخ ، وليس اعتماد التاريخ فى فهم الشعر وحسب . وأكثر ما بدا ذلك فى دراسة شعر الحرب عند المتنبى ، حيث رأى فى بعض القصائد قيمة تاريخية وجغرافية ، وعَدَّهَا وثائَق لكتابة التاريخ السياسى والتحقيق الأدبى فى تلك الفترة » (١٤) .

ثانياً : أنه حاول الاستفادة - وللمرة الأولى - من معطيات علم النفس فى التاريخ الأدبى ، حين علل جبن الفرزدق بانخذاله البسيكولوچى (٩٨) ، وعلل موقف جرير الضعيف من الحرب بالحس الحربى المكبوت لديه (١٠٢) ، إلا أنه لم يستطع أن

يستثمر هذه النتائج ليخرج بها من إطارالأفراد إلى إطار التأريخ .

ثالثاً : محاولة تأصيله للتيار القومي في الأدب ، ودفاعه عن التراث الذي يتخطى الحقائق ويرى كمال الأدب العربي في احتوائه على ملاحم كبرى تتمثل في المعلقات ، (ص١٧) ،ويستند بحجة قول بعض الدارسين بتعدد الأسماء التي صنعت الإلياذة والشك في تاريخية هو ميروس وبناء عليه تشكل المعلقات العشر ملحمة واحدة متكاملة كبرى تفوق الإلياذة . وليس هذا فحسب ، بل هو يعقد « ملحقا » بعنوان « الرمزية والحرب » ليقول في يقين جازم : « إن الذين يؤثرون في نهضة أدبنا المعاصرون ويحاولون أن يدخلوا على هذا الأدب الرمزية مخطئون ، لأن الرمزية بين أيديهم في شعر العرب وأدبهم » (٢٠١) .

وليس هذا فحسب « لكن المحاسني يقرأفي رمزية فيرلين ورامبو ما يقارب الرمزية الصوفية الإسلامية ، بل أنه يقرأ في تَطَيُّرَ ابن الرومي الشهير رمزية » (١٥) .

أخيراً ، وفي خاتمة الكتاب ، يحاول أن يطبق نظرية داروين على الأدب العربي ، وخصوصاً شعر الحرب ، فيجعل : الجاهلي والأموي والعباسي والعصور الوسيطة مراحل كالتالي : الولادة والنمو والتكامل والضعف ، ثم الموت فيما تلا من آخر العصور الوسيطة ، وأخيراً هاهو ذا يعود ليولد من جديد على يد البارودي وشوقي . وهذا يعلن في فخر بأن « شعر الحرب عند العرب قد مر بأدوار التطور الطبيعي ، ولم يشذ في الأدب ولم يتمنع على مقاييس العلم »(٢٨٩).

تلك هي أبرز قضايا الكتاب ، وهي محاولة غير ناضجة لإدخال مناهج ثقافية على تاريخ الأدب ، أفقدها تأثيرها خلط الكتاب بين النقد الانطباعي ، والنقد البدائي الذي يقسم القصيدة إلى وزن وشكل ومعان وخيالات وأسلوب وموضوع ، ويتناول كلا على حدة ، وكذلك غلبةُ الجانب التاريخي على الدراسة .

ومن القضايا غير الموفقة ، تعرض الباحث للفروق النوعية بين الجنسين العربي والفارسي من حيث الخيال ، وانعكاس ذلك على الأدب . فهو يجعل الخيال من الرموز الجمعية ، (أو اللاوعي الجمعي) كما عينه « يونج » ، أو بلغته هو : « ليس خيال الشاعر وطريقة تصوره وليد نفسه ، وإنما هو أمر عملت فيه نفوس متغلغلة في

غمار الأجداد الذين سبقوا . إن الخيال والتصور يشبه السحنة والهيئات التى على وجوه كل منا ، وإن هذه الهيئات ليست وليدة أبوينا وحدهما وإنما هى وليدة أجيال كثيرة لا يعلمها إلا خالقها ، كذلك أساليب تفكيرنا وقوة تخيلنا أو ضعفه ولون هذا الخيال وتصاويره ، كل هذا يعمل فيه من أورثنا الحياة الجسمية والحياة العقلية » (ص١٢٦).

وهذا الرأى السابق - علميا -لا غبار عليه ، فقد « طور يونج نظرية فرويد باكتشافه طبقة أخرى من اللاوعى تقبع تحت طبقة اللاوعي الشخصي أو العقل الباطن التى اكتشفها فرويد ورآها أشبه بقبو ضخم تُخْتَزَنُ فيه الأخيلة الجنسية المكبوته والمكبوحة التى تشكل العقد ، وهذه الطبقة العميقة من اللاوعي التى اكتشفها يونج هى طبقة اللاوعى الجمعي التي تستعصى على التحليل الفرويدى لانها منّبتّة الصلة بالكبت والعقد . والإنسان - وفق هذه النظرية - شبكة معقدة من الثقافة والبيولوچيا ، فهو المخلوق الوحيد من المخلوقات جميعاً الذى يرث تاريخ جنسه جسدياً وعقلياً معاً ، فكما يرث جسده الذى .

تطور عبر ملايين السنين يرث عقله الذى تطور هو الآخر عبر ملايين السنين أيضا . ويشكل اللاوعى الجمعي جزءا من هذا الإرث الإنسانى الذى يرثه كل إنسان ومن هنا كان هذا النوع من اللاوعي عاماً وشاملاً ومتشابهاً ودائم الحضور فى كل الناس وهو - على نحو ما نرى - مختلف كل الاختلاف عن اللاوعي الشخصي . إننا ،نستطيع أن نصوغ هذا الكلام صياغة أخرى فنقول : إن فى أعماق كل منا - نحن معشر البشر - إنساناً بدائيا نصدر عنه فى أمور كثيرة دون أن نعى . وعن هذا الإنسان البدائى أو اللاوعى الجمعى أو الأنماط العليا - بتعبير يونج - تصدر الصور النمطية المألوفة فى الفن والأدب والأساطير » . (١٦)

وهذا يعنى أن ثمة خيالاً فارسيا وخيالا عربيا حقا ، ويجعل مشروعيةً لتفريق الباحث بينهما ، فهو يقول : « بشارأصله فارسى من جهة أبيه ، وأبو نواس فارسى من جهة أمه . وجدير بهذين الشاعرين أن تبدو على شعرهما آثار الفكر الآرى والخيال الفارسى » (١٢٦) . ويخفق الباحث فى هذا المشروع الضخم ، ليقنع من الغنيمة بهذا الرأى المتواضع والمعاد : « أخص هذه الأخيله الفارسية ما كان بعيدا عن صدق البداوة أو محال التصديق ، كالتشبيهات الغالية التى نراها فى الشعر العباسى وفيها التهويل والتجسيم فى الاستعارات ، وكالإحاطة بالموصوف من أكثر جهاته ، مما

لم يكن العرب يعرفونه فى الجاهلية وصدر الإسلام ، إذْ كانت تغلب عليهم السذاجة وتنويع الموضوعات فى الغرض الواحد » (١٢٩) .

وفى سنة (١٩٥٠) ظهر بحث ومشروع بحث فى تاريخ الأدب . أما المشروع فكانت دراسة الأستاذ أحمد الشايب بعنوان « الأدب العربى بين الوحدة والتنوع » ، وهى محاضرة فى ست عشرة صفحة ، لاتزيد عن كونها اقتراحاً بتقديم خطة بحث لتاريخ الأدب العربى من خلال عرضه على محورى الوحدة (= المحافظة أو الثبات) والتنوع (=التطور أو التحديث) ، وفى سبيل إنجاز المشروع يقدم تقسيماً جديداً لأطوار الأدب كالتالى :

١ - طور الفتوح فى القرن الأول .

٢ - طور التفاعل القوى مع الآداب والبيئات الجديدة فى القرنين الثانى والثالث

٣ - طور الآداب القومية أو الإقليمية الإسلامية منذ القرن الرابع وما تلاه إلى عصر النهضة الحديثة .

٤ - طور النهضة الحديثة .

ولعل إغفال العصر الجاهلى يرجع إلى كونه النموذج الذى يقاس عليه التطور والتقليد. وهذا - كمشروع فقط - يشير إلى مشروع « أدونيس » الشهير « الثابت والمتحول » ، إذ يتبنى - منهجيا - الكثير من هذه التخطيطات .

للبحث بقية فى العدد القادم